obeikandl.com

المجد لسر الكون

المجد لسر الكون

أحمد دسوقي

غلاف/ خديجة يونس

مدقق لغوي أ.محمد فهمي

رقم إيداع ٢١٧٩/ ٢٠١٧ط١

الترقيم الدولى / ٦- ٠٢١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

01022661632 - 01211378610

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithbook.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إليكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية .

obeikandl.com

المجد لسر الكون

رواية

أحمد دسوقي

obeikandl.com

obeikandl.com

(الحلم)

جلس بشرفة منزله القديم المطل على شارع الشانزليزيه بباريس، ووضع فنجان القهوة على المنضدة العتيقة المنقوش عليها برج إيفل متوسطًا للأشجار والزهور.

نظر متأملًا لمنظر الغروب من الشرفة حيث قرص الشمس المتشرب بالحمرة يختفي، ثم أمسك بالجريدة المسائية باحثًا عن خبر يرسم البسمة على شفتيه، أو يجدد له الأمل بغدٍ أفضل؛ فالقراءة بالنسبة له حياة حيث بها يرتقي.

رائحة القهوة طيبة، أريجها يتطاير له جاذبية لا أحد يعلم سرها! فطعمها ليس باللذيذ للدرجة التي تجعلها المشروب المفضل له وللكثيرين!

ولكنَّ للارتباط الروحي بالقهوة سرًّا غريبًا وكأن الروح هي التي تتشربها وليس الجسد؛ فلم يختلف على عشقها اثنان ممن يمعنون في التفكير أو العشق.

شرب رشفة من القهوة.

- امممممممممم

- لذيذة ممتعة..

ذكرته بشيء من طقوس صباه عندما كان يجلس وقت الأصيل مع جدته يحتسي القهوة بشرفة منزل العائلة بمصر. تلك الشرفة التي كانت تطل على ميدان المساجد بحي بحري أعرق حي بالإسكندرية حيث مسجد القطب أبي العباس المرسي ومسجد الولي ياقوت العرش ومسجد الولي البوصيري ومسجد الولي علي أبو الفتح ومسجد ست مندرة عمة سيدي إبراهيم الدسوقي ومسجد سيدي نصر الدين.

ذلك الميدان الذي يبدو كبستانٍ مباركٍ حيث النخيل والمآذن العالية آية على رب الوجود والكائنات.

مآذن يعلوها الهلال النحاسي وقد صار رمزًا للحضارة الإسلامية بمنزلته العالية أعلى المآذن مشيرًا لاتجاه القبلة لكل ناظر، ويذكره دائمًا بالله.

كالنخيل شامخ للسماء.. حيث تذكَّر ذكرياته عندما كانت تتعالى ضحكاته يداعب جدته وقد برقت سِنتها الذهبية بضوءِ ما تبقى من أشعة شمس، قبل أن تودعهم للغروب، وهما جلوس بالشرفة المعلَّق بها البصل والثوم والموضوع على سورها الريحان تفوح منه رائحة العطر مع

نسيم ما بعد العصاري.

ذكريات وذكريات محفورة على جدار الذاكرة منذ الصغر.

دائمًا الذكريات أجمل من الواقع الذي نعيشه بكل ما بها من مآسٍ ولعلَّ سبب ذلك أنها أصبحت ماضيًا يتشبث بكلتا يديه بجدار الذاكرة. ليس له أسلحة الواقع المؤلمة ولا جهالة المستقبل المخيفة، وقد تعلمنا منه الكثير، ولازلنا سالمين نحيا.

و لكن سرعان ما تحول طعم القهوة ذلك الطعم المثير للذكريات في فمه لطعمٍ مُرٍّ مرارة العلقم!

مرره إحساس داخلي بالقيد.. بسلاسل من ضغوط الحياة التي يعيشها الآن وأعباء يدور في فلكها لم تجعل لسعادةٍ طعمًا.. حتى نشوة استمتاعه بفنجان القهوة!

فذلك البن القاتم اللون يترك أثرًا من السواد على شفتيه ثمة الأيام التي يعيشها، وكل رشفة من البن يرتشفها لا ينفك عنها الامتزاج بمرارة السكن في منزل يمتلكه أهل الزوجة.

تذكر الأمثال القديمة (خرا ابن خرا اللي يسكن في بيت المَرَه)! و(أصعب مُر في الدنيا انتظار الغايب والخلف

الخايب والسكن عند النسايب).

فهو يسكن الآن في عقار عتيق بشارع الشانزليزيه في باريس تمتلكه عائلة فرنسوا عائلة زوجته آليتا؛

فقد تزوج آليتا بعد أحداثٍ صعبةٍ كادت أن تموت فيها منتحرة من أجله، ولولا إصرارها عليه، وضغطها المستميت، ما استطاع أن يتزوجها ويسكن في مثل هذا البيت الذي تملكه تلك العائلة الأرستقراطية في فرنسا.

عشقت آليتا وسامته ولم تفكر في أي شيء آخر، في حين لم يعجبه في آليتا جمالها الهادئ بقدر إعجابه بجراءتها وتعبيرها عن مشاعرها تجاهه بشجاعة وحرية.

حبها له بشغف بعد خريف رومانسي جمعها به في شوارع باريس، حيث أمطار كانت في أعينهم زهورًا وورودًا وياسمين وفلًّا وبنفسج.

أبت نجوم السماء إلا التزين وقد تساقطت عليهما بمختلف الألوان والأشكال ونغمات الحب.

وأشرق بنجم الأرض، وتفتح بزهورٍ، ورسم على الأرض قلبًا أحمرَ أقحوانيًّا، أما أوراق الأشجار المتناثرة يمينًا ويسارًا على الطريق، فقد كانت تتراقص وتدور في حلقات كقلوبٍ مجنحةٍ متماسكةِ الأيدي تبارك حبهما..

ما أجمل البدايات في الحب!

فالبدايات تَنقش على صدر الذاكرةِ روائعَ الذكريات، وكيف لا تكون ذكرياتٍ جميلةً، وقد شكَّلَ أجزاءَها الجلوسُ في حدائق شامب دي مارس حيث الزهور مبتهجة بحبهما، يداعبها نسيم الصباح؟

حضور عروض مسرحية على مسرح أولمبيا.

ساعات من العشق على مقهى بروكوب، يستمعان لإبداع الحضور من الأدباء في لحظات جنونهم، وقد تلبث بهم شيطان الشعر فيعبِّرون عن مشاعرهم المتدفقة الجياشة بقصائد عشق تتوِّج ما بهم من أحاسيس بتاج النشوة والسعادة.. يستمعان لعزف منفرد من كمنجة فنان عاشق لفنه بجنون يُنطق الأوتار بنغماتٍ تتعالى بآهات المستمعين وتعجباتهم من براعته، لكن عزف آليتا على أوتار قلبه أكثر إبهارًا له؛ فكم أبدعت في ذلك حتى هام بها عشقًا.

زاد تعلقه بها بما فعلته من أجله ومن أجل أن تظفر به رغم الفارق الطبقي بينهما، فهي من طبقة أرستقراطية وهو عربي مهاجر، فقد عرفها منذ الشهور الأولى التي وصل فيها إلى فرنسا.

فلم يكن أمامه في ظروف الغربة المرة إلا هي حِضنًا وسكنًا وأمانًا واحتواءً كانت حنونة وعاشقة له وكان لها

عاشـقًا.

لم ينـس تلـك الكلـمات البديعـة التـي نطـق بهـا قلبـه قبـل لسـانه، فأسـعدتها وجعلتهـا تـدور مرحًـا وعشـقًا تحـت الأمطـار سـعيدة بحبـه لهـا.

يوم قال لها:

- أحبكِ كحب الزهور لقطرات المطر؛ فأنتِ الحياة.

مـا أجملهـا مـن ذكريـات كبقايـا عطـر العـود لازالـت تعطـر قـارورة خاويـة إلا مـن أثـرِ مـاضٍ جميـل.

فكـون أصلـه عربيًّـا، وعملـه كنـادل في بـار جعـلاه مرفوضًـا مـن أهلهـا شـكلًا وموضوعًـا. لـولا شـهادة الدكتـوراه التـي حصـل عليهـا في علـم النفـس لـكان زواجهـا شـبه مسـتحيل بعـد عـدة سـنوات مـن الحـب والرومانسـية في شـوارع وحدائـق باريـس، ولـو قتلـت آليتـا نفسـها أمامهـم بقطـع الشرايـين أو تنـاول السـم المميـت!

ولـولا أنهـا أنجبـت منـه جانيـت، لمـا سـمحوا لهـما بالعيش في هـذا البيـت الـذي تتوارثـه العائلة.

وهـا هـي جانيـت الآن بلغـت السادسـة عـشرة وأصبحـت مدموازيـل حسـناء.

لم يأخـذه مـن التطلـع لمنظـر الغـروب مـن الشرفـة إلا السـيارة

التي تنقل ابنته من المدرسة إلى البيت الهادئ.

سيارة مدرسة فرنسية عريقة. تلك المدرسة التي يدفع فيها نصف دخله ونصف دخل زوجته تقريبًا من أجل أن يظهرا بشكل جيد أمام العائلات الأرستقراطية التي تسكن حولهم.

هكذا قررت والدة زوجته!

تلك المرأة التي استطاعت بمرور الأيام أن تأخذ آليتا منه، كانت مسيطرة لأبعد حد ممكن، تتحكم فيهما ويتحكم فيها العادات الأوروبية الأرستقراطية القديمة حتى أصبح لتحكمها مدى أبعد وصارت تتحكم عن بعد في حياتهما بتوجيهاتها الصارمة لآليتا.

وما لبث أن ترك ذلك التحكم آثارًا جانبية شديدة الخطورة على حبهما الذي أصابه الجمود، وتغير مع الأيام التي كتب الله عليها التغير، فسبحان من يغير ولا يتغير!

تجمدت المشاعر بينهما، وكأن الأيام قد وضعت حبهما على قالبٍ من الثلج..أصبحت آليتا معه وليست معه.

أصبح حبهما في العناية المركزة. لا أحد يعلم متى سيزيل التنفس الصناعي، ويعود لقلوبهم التي تكاد تخلو منه إلا من بعض الرتوش.. وقفت سيارة المدرسة بجوار البيت

ونزلت منها جانيت.

تابع عادل ابنته بنظره من فوق سور الشرفة حتى دخلت من باب العمارة العتيقة التي يسكنها حتى اطمأن.

نظر عادل في الجريدة يتطلع فيها ويقلب النظر من هنا ومن هناك، 1 مارس 1997 سافر الرئيس.. فاز فريق مارسيليا على فريق.. لازالت النعجة دوللي تخطف الكاميرات من مشاهير العالم، لم يلفت نظره في الجريدة شيء جديد.. وكأن الأخبار متشابهة كل يوم، ولا جديد تحت قبة السماء، يضع الجريدة على المنضدة فتلمح عيناه إعلانًا.. تعلن دولة الإمارات العربية المتحدة عن حاجتها لأساتذة جامعيين من فرنسا في التخصصات التالية:

علم النفس

النبات

علم الحشرات

وسوف تتراوح الرواتب بين 30 ألف دولار و50 ألف دولار شهريًّا حسب تحديد وزارة التعليم.. آخر موعد لتقديم الطلبات1997-6-1

لمعت عينا عادل ورفع حاجبيه، وحملق طويلًا في الإعلان ثم اعتدل في جلسته بعد أن كان متَّكئًا وتعلَّقَ بالجريدة بكلتا

يديه كغريق وجد قطعة من الخشب يقرأ وكأن على رأسه الطير تهبط وتطير ولا ترتاب من شدة ثبوته وتركيزه، وظل كلما انتهى من الإعلان يعيد قراءته غير عابئ بالزمن؛ فاليوم إجازته التي يستريح فيها من العمل بالملهى الليلي بتلك المهنة الصاخبة التي فرضتها ظروف حياة الغربة القاسية عليه.

اليوم الوحيد الذي يشعر فيه أنه ليس تُرسًا في آلة.

قرأ وفكر في تلك الفرصة التي قد تمنحه مالًا ومركزًا مرموقًا يجد فيه طموحه ويتلاقى فيها مع نفسه التي تحولت لمسخ أخرس بعدما تجاهل نداءاتها مرارًا حتى بح صوتها أيامًا ولياليَ وأرغمها هو على ما لا يعجبها خوفًا من عودة لحياةٍ أشدَّ قسوةً فكان يبرر لنفسه بأن تحمل الغربة وما بها من صعوبات أهون من تحمل فقر مدقع..

تعلق بحبل الأمل المضيء نورًا للعودة من جديد لمجتمعه العربي الذي اشتاق له بحياةٍ كريمةٍ تتسلَّح بسلاح المركز المرموق والدخل الكافي لتحقيقها.

جلس جلسة مع النفس.. يخاطب نفسه وقد وجد ضالته.. إنها فرصتي لكي أعمل بالتخصص الذي أحببته.. وأصلح ما أفسده الدهر، وأكون نفسي.

عالم في علم النفس في بلد عربي.. تملك الأملُ عادل، ثم اعتدل واقفًا ينظر للحظةِ توديع الشمس لمدينة النور والنار حيث قرص الشمس يختفي.. امتطى صهوة جواد الحلم، وانطلق به بعيدًا يراوده حنينه إلى مصر.. عاد لغرفته يتأملها وكأنه يراها لأول مرة بشكل مختلف تمامًا خالٍ من الانبهار الذي انتابه أول مرة دخلها فيها، وقد جلس سلطان الحرية على عرش قلبه ووضع قدمًا على الأخرى.. يرى نفسه كعصفور نبت ريشه واسترد عافية جناحيه.

حلق بجناحين بحلمه فوق السحاب ممسكًا بالجريدة التي بها أمل حياة جديدة كريمة يتمناها تنتظره تشبع حرمانًا يصرخ من أعماقه. ترياقه العودة للأوطان.

تخيل نفسه شرنقة لحظة تحولها فراشة، تُحَلِّق بجناحيها وتشاهد الأشياء من بعيد حيث الرؤية أفضل، وقف يتأمل الغرفة ويحملق بعينيه فيها.. كيف لم تشعره تلك الجدران السميكة بالأمان؟!

ليست سماكة الجدران هي ما يعطي الإحساس بالأمان؛ فكم من بيوتٍ محصنة وبداخلها من يرتعد خوفًا.

فمنذ وطئت قدماه فرنسا، فقد الإحساس بالأمان الذي كان ينعم به في مصر وسط الأهل والأحباب.. اقتربت منه زوايا الغرفة حدَّ الاختناق.

كنائم استيقظ، وجد نفسه بداخل ثلاجة فاكهة تتصاعد بداخلها أبخرة خانقة..

يتأمل النقوش العتيقة على الحائط.

ورق حائط قد صبغ الفرنسيون لونهم عليه..

يستغرب.

يستشعر بشوق وحنين للبيت العربي الأصيل بكل ما فيه، يعاود النظر.

رفوف عليها كتب لموليير وكانت ونيتشه.

ورق حائط قد صبغ الفرنسيون لونهم عليه..

لوحة على الحائط لنابليون ممتطيًا صهوة جواده وممسكًا بالزمام يشير بالسبابة متحفزًا لقتال ويظهر بها من بعيد الجنود والمدافع ذات العجلات الخشبية وقد ارتدى وشاحه الأصفر على بدلته الزرقاء وعلى رأسه قبعته الفرنسية الشهيرة وكأن أمجاد الماضي وأطماعه الاستعمارية قد شكلت قبعته الفرنسية المنتشية ويعلوها الزهو.. لم يفكر في يوم من الأيام من هم الذين قد حرض نابليون جنوده على قتالهم إلا في تلك اللحظة!

ينظر إلى قطع الأثاث ذات الطابع الغربي.

كرسي هزاز نظر إليه وكأنه لأول مرة يراه على الرغم من أنه رآه مرارًا واستلقى بظهره عليه، منقوش بحافته ديك بعرف كبير.

لكنه لا يمثل له أي شيء، ولا يرتبط معه بأي ذكرى طفولة، تأمل الديك الفرنسي المنقوش على الخشب لكنه ذكره بالديك الذي يصيح فجرًا من فوق سطح البيت المقابل له في مصر مبشرًا بنهار جديد مشرق. فكم أيقظه لصلاة الفجر. فذاك الديك الذي لم ينسَهُ أبدًا.

وقطعة أخرى منقوش عليها نسر برأسين، رأس تنظر جهة المشرق والأخرى تنظر جهة المغرب.

نسر غريب!، ذكره بالنسر المصري مرفوع الرأس شموخًا، فكم حيى العلم في فناء المدرسة صباحًا وهو ينظر للنسر المصري الشامخ، وقد نظر جانبًا يحذر كل من تسوِّل له نفسه أن يتعرض لذلك العلم بسوء..

نظر ناحية النافذة وتأمل الغروب وكأنه غروب شمسه عن باريس ورحيلها لمصر تحمل أحلامه.

ما تلك الحالة التي تنتابه؟ فهي تشبه حالة الانسلاخ التي تحدث لثعبان يغير جلده الذي عليه بما فيه من تهتكات وتشققات ليعود بجلده جديدًا نقيًّا كما كان..

جلس وأخذ نفسًا عميقًا يستنشق فيه الأمل القادم من مدًى بعيدٍ قبل المشرق..

يشعر بأنه يكتشف نفسه..

فما أعظمه من اكتشاف عندما يغوص الإنسان في أعماق نفسه ويكتشف بها مناطق جديدة لم يمسها إحساسه من قبل.

يرى نفسه مثل شجر الأثأب حيث امتدت من فروعه ما يشبه الجذور، وحنت للأرض، فتدلت وتدلت حتى غاصت في أعماق الأرض.. ولكن هل ستوافق آليتا على أن تذهب معه للعيش في الخليج؟

الطبيعة مختلفة والثقافة مختلفة..

هل ستوافق العائلة الأرستقراطية الموقرة على ذهاب ابنتهم للعيش بدولة عربية؟

أسئلة تدور في ذهن عادل المحلق بأحلامه فوق سحاب تخترقه المآذن .

لحظات ثم يعاود النظر في الإعلان.

نعم، مكتوب فيه تخصص علم النفس!

(بلا وداع)

ذهب عادل لغرفة آليتا ممسكًا بالجريدة، مظهرًا فرحه بابتسامة بشوشة على وجهه عسى أن تؤثر تلك الفرحة على آليتا عندما تراه سعيدًا ومتمسكًا بتلك الفرصة.

يلوح له من بعيد أصوات نقاش حاد..

في طريقه للغرفة يسمع صوت بكاء جانيت وصيحات آليتا، كم سمع مثل ذلك البكاء مرارًا ومثل تلك الصيحات كثيرًا حتى تعود على تلك المشاحنات المتكررة؛ فتلك طريقة آليتا في تعليم جانيت أصول البروتوكولات، تدخَّل كعادته لفض ذلك الاشتباك فبادرته آليتا.

- تعالَ لتسمع كلام ابنتك الغريب عن معلمتها!

سألها عادل: ماذا تقولين يا جانيت عنها؟

- أنا لا أقول عنها يا أبي غير أنها تقول كلامًا غريبًا وتوافقها أمي عليه!

- ماذا قالت؟

- إنها تقول إن الجنس كالماء والهواء ولا أحد يعيش دونه وأن الجسد يحتاجه كاحتياجه للطعام.

- يا جانيت هذا الكلام له ضوابط اجتماعية وأخلاقية ولابد عندما تسمعين موضوعًا أن تستوفي كل جوانبه.

- وما الذي فاتني يا أبي كي أفهمه؟

- أن إشباع تلك الرغبة لابد أن يكون من خلال زواج مقدس يشهده الناس جميعًا وتشهده السماء.

فتتداخل آليتا:

- ماذا تقول؟

- وهل أنت طبقت ما تقول؟ ألم تعش معي في فرنسا سنوات قبل الزواج؟

- إذا كنت أخطأت فهذا لا يدل على أنني غير مؤمن بما أقول لكن لا يصح إلا الصحيح.

التفتت آليتا في ضجر مما يقول، وأعطت عادل ظهرها، وذهبت لتجهيز الطعام لجانيت.

على الرغم من حزن عادل من موقف آليتا، لكنه لم يستغرب موقفها ذلك؛ فهي دائمًا منحازة للثقافة الغربية بكل ما فيها، ومع الأيام ظهرت الاختلافات بينها وبينه..

الطبائع التي هي رواسب ذائبة للثقافات المختلفة بينهما تسري في العروق..

ذهب عادل لغرفته تجنبًا لصدام متوقع، ثم عاد لها بعد عدة دقائق، وقد راح عنه ما كان به من إرادة للجدال في موضوع جانيت ومعلمتها، ووقف على باب المطبخ مستندًا بظهره على الباب، ممسكًا بالجريدة وعيناه تنظر لشرائح البطاطس في المقلاة وهي تتحول من اللون الأبيض للون الشمس عند الغروب، ويتخيل نفسه شريحة من تلك الشرائح حيث تفعل به الأيام ما يفعله الزيت المغلي بتلك الشرائح وها هو ينضَجُ أخيرًا..

- ألم تقرئي الجريدة اليوم؟

- لا.

- بها اليوم خبر يساوي مليون فرنك.

- يساوي مليون فرنك؟! وماذا فيه؟

- تطلب دولة الإمارات العربية المتحدة أساتذة جامعيين من فرنسا بمرتبات كبيرة جدًّا.

- وما عَلاقتنا نحن بهذا الخبر؟

- أنسيتِ أنني حاصل على دكتوراه في علم النفس؟

- لا لم أنسَ لكني لا أتخيل أنا أن أعيش في دولة عربية.

- لماذا؟

– إنني أوروبية وما أستطيع أن أعيش في الخليج. طبيعة مختلفة وثقافة غير..

– يوجد الكثير من الأوروبيين هناك.

– نعم لكنني من عائلة عريقة وأرستقراطية ولن توافق على سفري وعملي في دولة عربية. انتظر هنا حتى تأتي الفرصة وتعين في جامعة فرنسية.

– أنا معي جنسية مزدوجة فرنسية ومصرية والأولوية لمن ولد في فرنسا دائمًا وتخرج في جامعاتها، لكني حصلت على الدكتوراه فقط من هنا.

– أنا ما أستطيع أن أعيش في بلد غير فرنسا. انسَ هذا الموضوع تمامًا. أنا حياتي هنا وسأظل في باريس.

– كيف أنساه وهو ما سيحقق أحلامي؟

– أي أحلام تلك التي تُحقق بعيدًا عن فرنسا؟

– أنتِ متأثرة بأفكار أمك.

– وأنتَ متأثر بأفكار آبائك وحننت لأراضيهم.

– آليتا الآن انتهى النقاش.

– أحسن.

جلس عادل على كرسي يفكر؛ وكأنما فقأ في خدوده حَب الرمان وهو يشعر بحرارة تخرج من أذنيه كبخار لقطار الثورة الصناعية يسير بالبخار في مستعمرة بريطانية.

جلس يفكر في علاقته بآليتا، ولا يفكر في الفرصة الذهبية التي سنحت له..

جلس يفكر في حياته ولا يفكر في عمله.

جلس يقيِّم مدى ارتباطه بآليتا.

ما هذا؟

هل هذة آليتا التي كادت أن تموت من أجلي؟

أم إنها امرأة غيرها!

أين ذهب الحب الذي كان بيننا؟!

من سرقه منا؟!

من هو سارق حبي وفرحي؟!

هل هي الظروف الصعبة وضيق العيش وكثرة الالتزامات؟

أم هي المظاهر الكاذبة التي تحيط بنا في هذا الحي وتلك العائلات التي تعبد المظاهر؟

إنها تغيرت تغير الحرباء عند مرورها بمجموعة من

obeikandl.com

الذئـاب..

أم إن حبي كان حبًّا شكليًّا؟

كان سرابًا؟!

أم إن الحـب مثـل المـاء يصـل لدرجـة الغليـان فيتملـك كل الجـوارح ثـم يـبرد ثـم يتجمـد؟

أم إن الحب كماء؟

تمسـك بـه اليـد وتتملـك منـه فعندمـا تنفـك القبضـة لا تنفك عـلى شيء غـير أثـر مـاء عـلى الأصابـع لا يكفـي إلا لمسـح الجبهـة بـه مـن أثـر تلـك الصدمة..

هـل للحـب دورة حيـاة كـما للفراشـات يتخللهـا التحـولات ثـم ينتهـي بالمـوت؟

أم إنني المخطئ تركت المضمون ولم أرع إلا قشورًا؟

قـد تكـون لم تتغـير لكنـي لم أكـن أعرفهـا جيـدًا أو أحببـت يومًـا مـا إنسـانة وأعصمـت عينـي بعصبـة العشـق عـن عيوبها؟!

يومًـا بعـد يـوم نتباعـد كرفيقـين افترقـا عنـد مفـترق طـرق وظـلا يسـيران وكلـما سـارا اتسـعت الهـوة بينهـما..

طبيعة غريبة..

تعشق الصخب..

تموت عشقًا بالسهر خارج المنزل فلا يغمض لها جفن ليلًا مطلقًا حتى يتنفس النهار فتسلم للنوم العميق.

على الرغم من عملي نادلًا في بار لكني أكره الصخب وأبحث عن الهدوء أينما كان..

أحنُّ إلى عروبتي.

أحنُّ إلى أصالتي.

أحنُّ إلى هدوء مساء الإسكندرية وأمانه..

ألا هي حادة الطبع ومتقلبة المزاج في درجة تقلبه أسرع من طرفة العين؟!

إذا حاورتها ووضعت ماءً في إناء على نارٍ، تشتاط غضبًا وتثور قبل أن يفور الإناء!

كل هذه الخواطر تدور في ذهن عادل وقد جلس جلسة لم يجلسها منذ سنوات. لم يجلسها منذ أن كان في مصر.

خاطب نفسه لأول مرة بعد جلسة صراحة مع النفس بحيادية لم يجلسها طوال حياته.

تلك فرصة ستجعلك رجلًا بلا قيود..

ستمنحك المال الذي جعلك ترضى بأشياء تأباها.

طبيعتك العربية وثقافتك.

obeikandl.com

استمسك بها ولا تفوتها.

استمسك بالأمل.

ما تعلمت في فرنسا غير أنه لابد لكل إنسان من أن يجلس مع نفسه يقيم كل شيء حوله بحيادية وإنصاف ستفرق معه كثيرًا..

الإنسان يصنع المستحيلات بإرادته وإصراره على ما يريد.

بنفسك تصعد سلم المجد ولن يصعد بك أحد.

سلم المجد ليس سلمًا كهربائيًّا إنما هو درجات من الصخر افترشتها الأشواك.

فسلم المجد

يحتاج لإصرار وحماس

ولو وقعت وأدميت قدميك

فقف مرة أخرى واستمر. ستصل.

كل تلك التساؤلات والصراعات داخله جعلته لم ينم تلك الليلة وقرر في النهاية أن يستمسك بالفرصة الذهبية..

وسيظل الحب باقيًا إذا كان هناك حب.

نعم الحب الحقيقي سيبقى للأبد.

قـرر عـادل بعـد طـول سـهر وقلـق وتوتـر أن يستمسـك بالفرصـة الذهبيـة البراقـة؛ فهـي فرصـة صعـب أن تتكـرر، فهـي نـادرة كنـدرة خاتـم سـوليتير فريـد بيـد ملكـة متوجة عـلى عرش مملكـة متباعـدة الأطـراف.

مـا أعظمهـا مـن فرصـة كاشـفة كزجاجـة تبـين كل مـا بداخلهـا مـن محتـوى!

إنهـا سـتكون كالنـار التـي تفتـن الذهـب فتخلصـه مـن الشـوائب ويعـود أفضـل ممـا كان.

ولكن هل ستشتريه آليتا أم ستختار الرحيل؟

سـيذهب كل مـا ليـس لـه قيمـة وسـيبقى الحـب أو سـتبقى الحقائـق المؤلمـة!

سيبقى هو وحلمه وحبه.

أو سيبقى هو وحلمه والحقيقة المؤلمة..

وفي صبـاح اليـوم التـالي، اسـتيقظ مـن النـوم مبكـرًا حتـى يخـبر آليتـا بتمسـكه بتلـك الفرصـة قبـل أن تذهـب للعمـل؛ فهو لا يسـتطيع أن يقابلهـا إلا تلـك السـاعة مـن النهـار؛ فهـي تعمـل صباحًـا وهـو يعمـل مسـاءً. صـارا لا يلتقيـان إلا كمسـافرين صديقـين تجمعهـما الصدفـة في المطـار فيلتقيـان.

يـوم الإجـازة كان هـو اليـوم الوحيـد الـذي يجمعهـما كخيـط

رقيـق يوصـل بينهـما!

يا لها من حياة جافة قاسية صاخبة..

حيـاة فرضتهـا ظـروف الحيـاة الغربيـة الأوروبيـة الفرنسـية عليهـم.

لكن عادل سيضع النقاط على الحروف .

يخبرهـا بقـراره النهائـي في ذلـك الموضـوع المصـيري بالنسـبة لـه وتلـك هـي المـرة الأولى التـي سـيتخذ فيهـا قـرارًا شـبه نهائـي بمفـرده.

سيمسح التراب عن الزجاج وتبدو الرؤية أفضل..

سيضع الذهب في النار ليميز بين الذهب والحديد الزهر.

خرج إلى الصالة ليتناول معها وجبة الإفطار.

وبعـد أن أعـدت الإفطـار وجلسـت عـلى المائـدة تنـاول في يـده قطعـة خبـز فرنـسي ونظـر لعينيهـا فوجدهـا مسـتغربة.

فتلـك أول مـرة يتنـاول معهـا الفطـور في يـوم غـير يـوم الإجـازة.

- غريب أنك تتناول معي الإفطار اليوم!

- نعـم لظـروف عملنـا ولكـن حـان الوقـت الـذي أصلـح فيـه تلـك الظـروف وسـأتقدم لذلـك العمـل.

– عـادل لا تخلـق مشـاكل مـع أمـي فهـذا أمـر منتـهٍ فلـن تقبـل مطلقًـا مثـل هـذا الأمـر.

– أنـا قـررت أن أقـدم وعندمـا تظهـر نتيجـة التقديـم نتحدث في هـذا الموضوع.

– أنـا قلـت لـك رأيـي وأنـت حـر في حياتـك لكنـك لسـت حـرًّا في حيـاتي ولعائلتنـا حسـابات أخـرى!

– لـو وافقتِنـي الـرأي والقـرار فسـنفعل مـا نريـد لكنـكِ تتبنـين كل مـا تقولـه والدتـك عـن قناعـة تامـة بـه. أنـت وأمـك شيء واحـد.

قـام عـادل وهـو لا يعبـأ بـما تقـول، فقـد تحمَّـلَ كثـيرًا ولـن يأخـذ قـرارًا إلا بعـد ظهـور النتيجـة.

وقـدم عـادل أوراقـه في ذلـك النهـار، ومـرت أيـام وأيـام حتى تسـلم خطابًـا يحمـل الجـواب الـذي كان يتمنـاه. جـاءه الـرد بالترحيـب الشـديد مـن الحكومـة الإماراتيـة، وخصوصًـا لأصله العـربي، وقـد تـم قبولـه أسـتاذًا في جامعـة (أبـو ظبـي)، وأنهـم ينتظرونـه للتعيـين مـن أول مـارس حتـى يتـم التنسـيق معـه عـلى التدريـس في الجامعـة العـام الـدراسي القـادم، وأن مرتبـه سـيكون سـاريًا مـن أول مـارس في حالـة قدومـه بأوراقـه كاملـة للجامعـة قبـل ذلـك التاريـخ.

لم تسعه الدنيا من شدة الفرحة التي انتابته..

جاء اليوم الذي يعيد له طموحاته وآماله..

انكسر قفص العصفور..

نبت للعصفور المنتوف ريشه ريش ليحلق به كما يشاء..

وجاءت اللحظة الفارقة في حياته وستكون نقطة محورية في حياته تكمن أهميتها في هروبه من تلك الحياة الغربية التي مل منها فكان متحملًا تلك الأُبابة، وذلك الحنين لوطنه لما يعلم عن صعوبة الحياة في مصر بدون مالٍ كافٍ يضمن له حياة كريمة، فقد ترك مصر عام 1983 وهي في ظروف اقتصادية صعبة، وتتبنى مبدأ ربط الأحزمة والإصلاح الاقتصادي.

طابور عيش يشبه سرب النمل عندما يجد قطعة حلوى.

لا تستطيع أن تركب المواصلات وتخرج سالمًا من أي عاهة، ولو خرجت بدون لكمات فستخرج بعاهة روحية. إنسان يلملم كرامته من على الأرض.

التليفونات تعمل يومًا ثم تنقطع الحرارة كأنها خادمة تخدم عدة بيوت فأصبحت تزور تلك البيوت زيارة عابرة تحلة قسم، كالمثل القائل (خالتي عندكم. لا ماجاتش)!

المياه تنقطع وتعود بشكل عبثي وكأنها تمازحنا.

التيار الكهربائي حدِّث ولا حرج.

البلد يعيش بجدول ينظم ويجدول مصادر الطاقة فتأتي الكهرباء 12 ساعه يوميًّا كأنها عاملة بمصنع غزل ونسيج!

كانت أيامًا صعبة وخصوصًا على الفقراء مثله.

أما الأغنياء فدائمًا لديهم الحلول التي تضمن لهم حياة بلا متاعب.

كان لا يستطيع العودة لمصر بدون أن يحقق حلمه. كان كثور في ساقية يخشى تحطم آماله بالعودة لواقع مؤلم هرب منه.

طريق صار فيه ليحقق ذاته. كيف يعود بدون تحقيق ما يرجوه؟!

كيف بعد سفره لباريس يعود وهو يحمل خفي حنين..

أين سيتوارى من شماتة الناس؟

وماذا سيعمل؟

سيبدأ من الصفر بمجتمع يعاني؟

إلى أين سيصل بعد الصفر؟

فنحن في تلك الحياة كعجلة عربة تصعد مطلعًا من التراب. تسير ببطء لكن لابد من أن نكافح؛ فلن تثبت

عـلى وضـع معـين كثـيرًا فالجميـع إمـا صاعـد أو هابـط..

رضـخ لضغـوط حيـاة الغربـة رغـمًا عنـه خوفًـا مـن واقـع مـؤلم قـد ينتظـره في مـصر ومصـير لا يريـده.

جعلـه يعيـش مغلـلًا بسلاسـل مـن اليـأس وسـدته بهـا الغربة ومـا بهـا مـن أعباء.

تحمَّـل الكثـير في تلـك الغربـة القاسـية وسـنحت الفرصـة لـه الآن.

كان حريصًـا عـلى تلـك الفرصـة حرصًـا شـديدًا كحـرص مسـافر بالصحـراء عـلى راحلتـه وزاده حتـى يسـتطيع العـودة.

نعم كان يتمنى العودة لذاته أولًا قبل أن يعود لوطنه.

جاء نداء من أعماقه بالعودة..

ولن يعود إلا إذا قيَّم علاقته بآليتا..

وسيستريح من التيه الذي يعيشه في البحث عن حبهما.

دقـت سـاعة الحسـم في تقييـم ذلـك الحـب هـل هـو حـب حقيقـي أم وهـم؟

هـل سـتضحي وسـتحارب كل الظـروف مـن أجلـه أم هـو حـب شـكلي زائـف؟

هل لازالت تحبه أم ضاع الحب؟!

انتظرها عادل حتى تعود من عملها ساعات قلائل ولكنها مرت عليه كسنوات عجاف بما تحملها تلك الساعات من مشاعر قلق وحيرة.

عملها كمدربة رقص إيقاعي بنادٍ يجعلها تعود إلى البيت في الساعة الثالثة مساءً.

عادت مرهقة كعادتها، وكان في انتظارها. لم يتمهل حتى تستريحَ لقليلٍ بعد يوم عمل، لكنه بادرها بالخبر فكانت كالصاعقة عليها حيث إنها تيقنت أنه قرار فردي عنيد شعاره التحدي. هكذا فسَّرت الأمر.

ثارت في وجهه كزجاجة مياة غازية رُجرجت كثيرًا قبل الفتح :

– قلت لك مستحيل أعيش في دولة عربية وأنت لا تفكر إلا في نفسك.

– أنا أفكر فيكِ وفي جانيت ومستقبل أفضل.

– أي مستقبل بعيد عن وطني وعن عائلتي وأذهب لدولة عربية لأعيش؟

– وماذا فيها؟ ألا تحبين أن أعمل عدة سنوات هناك لنصلح أحوالنا المادية والاجتماعية؟

– العمر لا يتحمل إضاعة بعض السنوات منه في ما

تقول ولو تحمل فقد لا تحقق ما تأمل فإذن ماذا استفدنا غير إضاعة السنوات التي لا تعوَّض من العمر.

- إن الجد والكفاح هو الشيء الذي يجعل للحياة طعمًا يا آليتا.

- و أنا أحسبها جيدًا يا عادل وليس كما تحسبها أنت فليست الماديات كل شيء في الحياة ولن يتحقق مجد بعيدًا عن فرنسا.

- تغيرت نظرتك يا آليتا للأشياء فقد كِدْتِ تموتين من أجلي منذ عرفتِني بباريس.

- نعم كنت مخطئة؛ فحمقاء من تفعل ذلك من أجل رجل.

- أنا قررت قرارًا نهائيًّا لا يحتمل الرجعة فيه.

- وأنا أيضًا قررت قرارًا نهائيًّا يا عادل أنني لن أذهب معك وقررت أن أطلب منك الطلاق.

- يا آليتا لست مستغربًا من طلبك؛ فنحن نعيش كالأغراب منذ سنوات. ولكن سآخذ معي جانيت لتعيش معي.

- خيِّرها الآن بيني وبينك.

نظر لجانيت تقف على باب الغرفة تنظر في صمت وعلى

وجهها علامات الفزع والخرع.

- جانيت. أتأتين معي؟ أم تبقين مع أمك؟

لم تستطع جانيت النُّطق من هول الموقف الذي هو فوق طاقة احتمالها وقدراتها. كيف تستطيع أن تختار بين أب وأم؟! وماذا بعد الاختيار غير حياة مختلفة تمامًا عن الحياة التي كانت تعيشها؟!

يا له من قرار صعب صعوبة مرور مهرج على حبل مشدود يصل بين جبلين شاهقين حد السحاب ممسكًا في يده مصيره.

قرار في دقيقة تختاره فتاة يتحكم في مصيرها وحياتها القادمة.

يفعلها الكبار ويتحمل تبعاتها الصغار..

كم من صغير دفع ثمن نهاية علاقة فاشلة..

دارت الدنيا بجانيت..

كان أقصى اختيار لها سابقًا أن تختار بين حذاءين الأول برباط والثاني بدون!!

كم حيرها هذا الخيار.

الآن تختار بين جزأين من قلبها.

حتمًا ولابد ستفقد أحدًا منهما..

الأم والأب..

ما أصعبها من كلمة تخرج من الفم تقتنص جزءًا من القلب وتنزعه نزعًا مشربًا بالدم..

تلجَّمت كفرسة بلجام الخوف من الاختيار الصعب.

ما أصعب الاختيار.

الحياة كلها اختيارات وقرارات وأصعبها قرار يترتب عليه مستقبل إنسان ..

- سآخذها معي الإمارات.

- إذا أردت ذلك فخذها فقد بلغت السادسة عشرة وليست في حاجة لي.

- لا تمانعين؟! كنت متوقعًا منك أيَّ شيء إلا أن تفرطي في جانيت بهذه السهولة.

- الذي لا تعلمه أنت وأمثالك أنه لا أحد يمتلك أحدًا ومن ظن ذلك فقد غلبت عليه غفلته. كل إنسان حر. لا أفرط فيها مطلقًا لكن هكذا الحياة التي لم تفهمها أنت فهي حتمًا ستتركك وستأتي لفرنسا تعيش وحدها عندما تبلغ السابعة عشرة؛ فالكثير من الفتيات هنا يفعلن ذلك وسأعيش أنا حياة الحرية التي حرمتَني منها.

دمعت عين عادل وانتابته حالة قشعريرة حتى وقف شعر رأسه لتلك اللحظات المؤلمة الكاشفة، فقد فقد آليتا للأبد.

لكن الأقنعة سقطت وحدث ما كان يجب أن يحدث منذ سنوات منذ أن مات الحب بينهما.

ثوب الحب مهلهل.

كثرت الرقع فيه حتى اتسع الخرق على الراقع.

قالوا قديمًا: لا ترقع الثوب المهلهل الذي كثر فيه الخرق.

لكن الصدمات ليست دائمًا غير مرغوبة. أحيانًا نحتاجها لنجد أنفسنا..

والآن يجد نفسه مرة أخرى.

فراق إلى الأبد يا آليتا.

فراق يهب حياة جديدة.

فراق جريحين قد جرحتهم الأيام وذبلت الجراح وظلت آثارها.

فراق بين حبيبين تكسر حبهما كزجاج صدمته ضربات متتابعة من لاعب بيسبول بعصاه المخروطية..

لم تفهم جانيت موقف أمها منها جيدًا!

صدمة الموقف جعلتها كمسافرة صماء عمياء فقدت رفقاء الرحلة. الظروف التي تحيط بها هي التي تتحكم فيها كمركب شراعي صغير فقد الدفة وتحركه الرياح كما تشاء..

آليتا امرأة فضَّلت التضحية بكل شيء من أجل العودة لحياة التمرد التي تهواها. من ظن أن للانسان قوانين اجتماعية وقواعد لا يخترقها خطتها الكتب بعد تجارب اجتماعية كثيرة فقد أساء الفهم للحياة؛ ففي تلك الدنيا التي نعيشها لابد أن تتوقع كل شيء.

تتوقع أمًّا تفرِّط في وليدها من أجل تحرر.

تتوقع حبًّا يضيع من بعد أن تعالت ضحكات السعادة به أيامًا وليالي.

تتوقع حنينًا لما لا يتوقع الحنين إليه.

هكذا الدنيا..

لم تكن جانيت سعيدة بترك باريس حيث ترعرعها صغيرة وصديقاتها وذكرياتها الجميلة..

ولكنها بسنٍّ لا تملك إلا أن تكون تابعة خاضعة للظروف خضوع النعجة لسكين القصَّاب فلا تستطيع تغيير تلك الظروف المتجهمة والمكشرة عن أنياب ترهبها فتخضعها بلا

إرادة منهـا..

ولا تـدري هـل هـي الظـروف أم تفتـت بقايـا قصـة حـب أبيهـا لأمهـا عـلى صخـرة تمـرد أم؟!

أشـياء تظـن أنهـا مسـتحيلة الحـدوث في الحيـاة لكنهـا تفاجـأ بهـا تحـدث. فـلا تظـن مـرة أخـرى أن هنـاك شـيئًا مسـتحيل الحـدوث فتكـون صدمتـك قويـة قـد لا تقـوى عليهـا.

أم تختـار أن تـترك ابنتهـا الوحيـدة مـن أجـل أن تعـود مـن جديـد لبدايـات أكثـر إمتاعًـا. مـا أغربـه مـن مبـدأ.. أن تكـون اختيـارات الإنسـان مبنيـة دائـمًا على مصلحتـه الشـخصية البحتة.

لا غرابة..

فلقد كان لها كل شيء حتى في وجود أمها معها.

فهو من كان يحن حين تقسو آليتا عليها.

هو من علمها تعاليم الدين الإسلامي السمحة.

فعـلى الرغـم مـن كـون آليتـا مسـيحية الديانـة لكنهـا لا تعلـم عـن المسـيحية شـيئًا ولا تحـاول أن تعلـم، ولا أن تتكلـم في موضـوع الأديـان مطلقًـا.

أمـا هـو فقـد كان يجلـس يعلـم جانيـت اللغـة العربيـة وعـادات وتقاليـد العـرب وخصوصـا المصريـين.

كان يخبرها عن مجالس السمر والحكي في مصر بين أفراد العائلة وأبناء الحي الواحد في رمضان انتظارًا للسحور.

هو من كان يربط لها رباط الحذاء وهي صغيرة.

هو من كان يجلس ليستمع لحكاياتها في المدرسة ويناقشها فيها؛ فعلى الرغم من أنها كانت حكايات طفولية إلا أنه كان يناقشها وكله حب واهتمام.

عاشت وحيدة بلا أخ أو أخت ولم تحصد من أمها إلا الحدة والتعنيف.

حرص عادل على صحة ابنته النفسية وأحاط بكلتا يديه على مشاعرها يقيها من واقع أليم. أشفق عليها من صدمة يظل لتأثيرها توابع تظل العمر معها.

جهز أوراقها وأخبرها بأنهما سيذهبان الي الإمارات نظرًا لظروف عمله الجديد وأن والدتها ستلحق بهما بعدما ترتب أوضاعها في فرنسا وستعود المياة لمجاريها.

حجز عادل مقعدين بالطائرة المتجهة إلى الإمارات بعد خمسة أيام.

خمسة أيام تفصله عن الحياة الجديدة التي ينتظرها.

خمسة أيام فقط متاحة لجانيت كي تودع أصحابها في الحي وفي المدرسة.

جهـزت جانيـت حقيبتهـا ووضعـت في الحقيبـة ملابسـها ومتعلقاتهـا وصندوقًـا صغـيرًا لهـا بـه خـزف بحـر ذكـرى وبعـض الصـور.

أصحابها. تألمت كثيرا لفراقهم لكنها الأقدار.

ومـرت خمسـة الأيـام وقـد علاهـا الصمـت والترقـب للمسـتقبل المرجـو.

أرادت جانيـت أن تقبـل أمهـا لتودعهـا فلـم تجدهـا فقـد تركـت البيـت منـذ ثلاثـة أيـام ولا تـدري جانيـت أيـن ذهبـت أمهـا قبـل أن تودعهـا!

ولم يهتـم عـادل بمـكان آليتـا فقـد خرجـت مـن حياته قبـل أن تخـرج مـن المنـزل وانفصـل عنهـا نهائيًـا قبل السـفر.

(فوق السحاب)

و بعد أن ظهرت خيوط النور المنبثقة من قرص الشمس المشرق فجر يوم السفر، خرج عادل وجانيت وكلاهما يحمل حقيبته وآماله وأحلامه الخاصة.

فعادل يحلم بحياة جديدة يعيشها كما يرضيه وجانيت تتمنى حياة كريمة وكلها وجع مختلط بمرارة ترك الوطن الذي ولدت وترعرعت وصنعت ذكرياتها فيه.

ركبا الطائرة المتجهة للإمارات.

الجميع يجلس في صمت على المقعد المخصص له.

نظرت جانيت لجميع الركاب نظرة عابرة. شعرت بشيء من الوحشة الممزوجة بالحنين الشديد لباريس ولأمها. جلست على المقعد المجاور لتلك النافذة الزجاجية الدائرية التي لا تتعدى طبقًا زجاجيًّا صغيرًا. لكنها نافذة على العالم الجديد الذي ستعيشه.

نافذة على المستقبل.

جلس بجوارها عادل وهو ينظر إليها غير مصدق أنه عاد من فرنسا إلى عالمه العربي وهو معه زهرة فؤاده وبهجة

أيامه فقد كانت المصباح الذي يضيء له ظلمة الغربة. لم تخدمه الحياة الغربية في شئ سوى أنها خلقت من آليتا إنسانة لا تعبأ بمصير ابنتها ولا تبالي بجانيت، واستطاع أن يعود لوطنه العربي بها..

نظر عادل إلى جانيت بجواره وجدها تتطلع من القرص المضيء بجوارها كالطبق البنور.

وضع عادل عاصبة العينين على عينيه، واستلقى بجسده المرهق على كرسي الطائرة فكل الركاب قد أخذوا قسط من الراحة قبل السفر من أجل مشقة السفر إلا عادل فقد كان السفر بالنسبة له الراحة بعد تعب سنوات..

استلقى بظهره على الكرسي وشعر براحة رهيبة تسري في جسده المرهق منذ سنوات.

كلما تذكر أنه تخلص من المهنة التي فرضتها الظروف عليه يشعر بالراحة.

فقد كانت مهنة لا تناسبه ولكن كان لا يستطيع أن يخاطر ويجلس بدون عمل ولو يومًا واحدًا فكان كل فرنك يكسبه له مكان من الإنفاق سواء على الطعام أو الشراب أو تعليم جانيت أو المظاهر الكاذبة..

يتذكر وجوه السكارى الشاحبة التي كان يراها ويتطلع

فيها كل ليلة ليرى فيها المسخ ويخاف من الخسف. يخاف أن تخسف بهم الأرض وهو معهم؛ فقد كان يشعر بالذنب أيضًا فهو من كان يسقيهم بحساء الشيطان الذي يجعلهم كالدمى مسلوبة الإرادة يحركهم الشيطان كما يريد ..

نساء شبه عرايا.

ورجال ممسوحة العقول.

وكأس.

ورقص شيطاني يثير الغرائز ويفجر الشهوات الشيطانية.

وتقاليع يوحيها الشيطان لهم كل ليلة.

المال هو سلاح الشيطان الذي ينتصر به على كل من يتوهم الصمود أمام تلك الغواية المستميتة منه.

يدفع المبذر للإسراف بطغيان.

ويدفع عبيد الفرنك للرقص.

والتمايل.

والخضوع من أجله..

يتذكر كلمة قرأها للفيلسوف الغربي شاتوبريان يقول فيها:

الأخلاق أساس كل مجتمع.

ويجد من يعشقون فلسفته يتغافلون عن تلك الكلمة حين تصطدم مع شهواتهم..

هل تناسوها أم إن الأخلاق رثت وبليت ولم يبق إلا ما يحقق المصلحة فحسب؟

متى سيأتي من ينحو منحاه ويستنهض الهمم الوانية.

يتذكر تسلطات المظاهر الأرستقراطية على زوجته.

زيارات محسوبة بين العائلات الأرستقراطية وما يشغلهم فيها إلا التباهي بالأموال وبالأعراق..

يتذكر تدخلات والدة زوجته في أدق التفاصيل في حياتهم وكم كان يؤلمه ذلك؛ فقد طمست كل ما يخص هويته العربية في المنزل ولولا ساعات كان يقضيها مع جانيت يعلمها العربية والدين الإسلامي لما عرفت كلمة عربية واحدة.

مرت كل تلك اللحظات المؤلمة على خاطر عادل سريعًا لكنه يشعر براحة شديدة للتخلص من تلك التجربة وما بها من ضغوط.

ويتجمع في قلبه حنين ووحشة لوطنه العربي الذي ظل لسنوات بعيدًا عنه فقد خرج من رحم أمه للحياة على أرض مصر بالإسكندرية البلد الطيب، وأول أرض لمست

جلـده هـي أرضهـا الطيبـة.

تربـى وعـاش في حـارة بحـي بحـري السـاحر حيـث تعـود جـذوره وأصلـه لهـا منـذ قـرون وقـرون.

ويعشـق أهـل تلـك الحـارة لطيبتهـم وإشـفاقهم الشـديد على بعضهـم البعض..

يتذكـر العـشرة الطيبـة مـن أهـل بحـري وكان يتجـلى ذلك في شـهر رمضـان الكريم.

مـا أجمـل الأحيـاء الشـعبية بمـصر في رمضـان الـبركات والرحمـات والخـير!

شـهرٌ بـه روحانيـات تشـعرك بأنـه ضيـف كريـم يحبـه الجميـع حيـث يسـتقبله النـاس بالزينـة فيصنـع الصبيـة البطاقات الملونـة ويربطونهـا في الحبال فقبـل رمضـان بأيـام قليلـة كان عـادل يصعـد عـلى السـلم الخشـبي وهـو ممسـك بالحبـل الطويـل المعلقة بـه البطاقـات الملونـة ويربطـه فـوق بـاب بيتـه ثـم يربـط الطـرف الآخـر في البيـت المقابـل لـه وكذلـك جميـع رفقائـه الصغـار يصنعـون مثـل صنعـه حتـى تصبـح الحـارة وكأنهـا عُـرس جميل.

وكان يقـضي أول ليلـة مـن رمضـان ليلـة السـحور يصنـع الفانـوس الخشـبي ويكسـوه ببطاقـات الـورق الملـون ويضـع بداخلـه مصباحًـا كهربائيًّـا صغـيرًا..

وما تتم سعادته هو وأصحابه إلا عندما يشاهد الفانوس وهو معلق بين الزينة في منتصف الحارة..

ما أجملها من لحظات يتذكرها عادل وهو مستلقٍ بظهره على كرسي الطائرة!

كذلك يتذكر لحظات الأسى والألم التي عاشها في مصر قبل أن يسافر إلى فرنسا حيث ضاقت عليه العيشة وتقطعت السبل وغُلِّقت الأبواب جميعًا في وجهه في ظل المعاناة الصعبة له التي فرضتها الظروف التي تمر بها مصر في تلك الفترة بعد مقتل السادات ودخول مصر عصرًا شعاره من البداية ربط الأحزمة.

فالحياة في مصر في تلك الفترة تلخصها كلمات قالها له أحد المسؤولين في مصلحة حكومية عندما أراد عادل أن يشير عليه ببعض الملاحظات تعالج مسألة الروتين العقيم المعرقل لحركة الإنتاج والبيروقراطية التي جعلت من مصر بلدًا يقف كفعل مبني لا ينصرف وكل بلاد الدنيا تتقدم للأمام.

حيث قال له المسؤول:

- ممنوع الاقتراب أو التصوير.

- قف ولا تشاهد التقصير .

-الجميع يبذل ما لم يبذله بَشَر.

-الكل يتعب ويكد فأبشِر.

-فلا تقل: الجهل منتشر .

-لا تقل: نضع ضوابط.

-هل أنت ضابط؟

-ألا يعجبك أن نكون دولة نامية؟

-الكل يعمل ويجتهد.

-فلا تحملق أو تعلق أو تنتقد.

-تريد أن تكون عنصرًا إيجابيًّا؟

-كن كالثور في الساقية.

-فلا تستغرب إذا وجدت السمك في النهر أصابه النفوق. أو طائرًا دخل في سحابة سوداء فخرج منها بحروق. لا تستعجب إذا وجدت مسؤولًا لا يجول ولا يستغرق وقته في العمل الدؤوب.

obeikandl.com

فنحن نسير بخطة محكمة.

-فلا تدعُ إلى العمل.

-فالكل يعمل وهنالك أمل.

-فالله لنا نصير وهو لحالنا بصير.

قسوة الحياة جعلته يفكر في الهجرة من مصر، وقد حاول بشتى الطرق الحصول على فرصة عمل تضمن له حياة كريمة وتكون كعصا موسى تلقف كل ما حولها من معاناة وفقر وألم وهم وحزن..

فرصة للخلاص مما هو فيه، لكنه يئس من أن يجدها داخل مصر في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها، فتلك الفرص الذهبية التي يريدها لا تسنح إلا لأبناء الوزراء ثم الأقرب فالأقرب فالمحسوبية تجلس كامرأة متسلطة على عرش سوق العمل وترتدي تاج المصالح المشتركة ويحيط جيدَها عقدٌ من الرشوة به قلادة منقوش عليها شعار أهل الثقة أولى من أهل الكفاءة.

فكر في أن يبحث عن حلمه خارج مصر في أي دولة بأوروبا الغربية يستطيع أن يثبت بها ذاته ويحقق كل ما تمناه وكان الحل عند صديقه كلبش صديق الطفولة ذلك الصديق ذو الملامح المصرية الأصيلة الذي طالما شاركه غاراته على

أطفال الحارات المجاورة ويكاتفه في المشاجرات ثم سرعان ما يتصالحون وتتولد صداقة جديدة مع أبناء تلك الحارة المجاورة فكما يقال ما محبة إلا بعد عداوة.

كانت شخصية كلبش متمردة، وظلَّ على تلك الشخصية المحبة للمغامرة والاستكشاف حتى جذبته مهنة بحري على السفن التجارية فتلك المهنة هي أكثر مهنة تناسب شخصيته؛ فمن خلالها يزور معظم المدن الساحلية في العالم حيث تدخل السفينة التجارية الميناء فتفرغ حمولتها وتنتظر حمولة أخرى من ذلك البلد لتنقلها لبلد آخر وخلال تلك الفترة التي تتجاوز سبعة الأيام يتردد كلبش على المدينة التي بها الميناء يتجول في طرقاتها ويزور معالمها وبالليل يقضي سهرة بملاهيها الليلية ثم يعود للمركب ليقضي فترة عمله بها. زار كلبش معظم دول العالم فقد سافر مرارًا على السفن التجارية..

كان مبدؤه في الحياة.عيش يومك.

وفي إحدى إجازات كلبش بمصر كان يجلس على

مقهى (الزغدوني) بعد المغرب يحتسي القهوة في كامل أناقته بملابس منمَّقة وجديدة اشتراها في الرحلة الأخيرة، وما إن رأى عادل يمر من أمامه إلا انتفض واقفًا وناداه بصوت عالٍ فلم يره منذ سنوات.

- عـــــادل.

- ياه كـلبش!

- كيف الحال؟

- الحمد لله.

- سنين لم أرَك.

- نعم. حال الدنيا.

- أتتذكـر يـوم تسـللنا خلـف السـياج الحديـدي الـذي يفصـل بـين قلعـة قايتبـاي وسـاحل البحـر؟

- هـا هـا هـا نعـم هـذا يـوم لا ينسـى يـوم أن طاردنـا العسـكر وفررنـا منهـم هـا هـا.

- ما أجمل ذكريات الطفولة

- نعم. لا تنسى أبدًا.

تعانقا وتعالت الضحكات.

احتضنه عادل وسعد بلقائه.

وتفـاءل بتلـك الرائحـة الطيبـة فرنسـية الصناعـة التـي يستنشـقها حـال حضنـه لصديقـه كلبـش وتُنبئـه بـشيء مـن الفـرج عـلى يـد صديـق عمـره كلبـش الـذي لا يتعطـر إلا بعطـر فرنـسي أصـلي المنشـأ.

جلسا يتبادلان أطراف الحديث ويتذكران ذكريات الطفولة ثم أشار كلبش على عادل بالسفر خارج مصر عن طريق السفن التجارية.

لا أريد العمل على السفن التجارية فهي سجن متحرك.

لن تصبح مهنتك ولكنها حيلة للسفر .

كيف ذلك؟

سأخبرك بالخطة.. طريقة مجربة.

فالخطة كالتالي. يمتهن الشخص أي مهنة على السفينة ثم عند رسوها بأي ميناء أوروبي ينزل في تلك الدولة ولا يعود إلا وقد ضمن حياة سعيدة.

خطة جهنمية أرجوك دلني على الخطوات.

خطوة خطوة.

أشار عليه كلبش بطريقة استخراج جواز السفر البحري ثم ساعده في الحصول على فرصة عمل معه كمساعد طباخ على السفينة..

ما أصعب أن يتمنى المرء الخروج من وطنه وما أمر شعوره بالضيق بوطن يتنكر لمواطنيه فيدفعهم للتفكير في تركه لأي أرض غيره قد تحنو عليهم رغم غربتها للأسف..

ركب السفينة وارتدي قبعة الطباخين الشهيرة والزي الأبيض المخصص للمهنة التي يمارسها لأول مرة في حياته حيث كان يقوم بتجهيز الطعام للطبخ كما أنه يساعد في تقديم الطعام لطاقم السفينة في المواعيد المحددة حتى يلعب له الزهر وترسو السفينة بأي ميناء من موانئ أوروبا فيتسلل لذلك الميناء من السفينة ثم يقوم بتمزيق الجواز وكل أوراقه التي تُثبت هويته فلا يتم ترحيله ويبقى ليحقق أحلامه. هكذا تتمة الخطة التي رسمها له صديقه الداهية كلبش.

ورست السفينة على ميناء مارسيليا، وتسلل للميناء، ومنه لمحطة القطار متجهًا إلى باريس عاصمة النور والنار. ذكريات عمره تمر أمام عينيه كشريط سينما.

ما أغرب الإنسان!

سريع الضجر.

يترك وطنه.

تجربة قاسية يمر بها.

يتمنى العودة.

يتذكر تلك المرأة التي كان مرتبطًا بها. كم هي غريبة كغربة العيش في فرنسا..

كانت تبحث عن الحرية من كل شيء فقد كانت لا تعبأ بدين أو التزامات.

لكنه يكفيه من كل التجربة المريرة في أوروبا شيء واحد يهوِّن عليه كل شيء.

أنه عائد بجانيت.

فبرغم قسوة الحياة في مصر لكنه اكتشف أنها كانت أفضل من العيش في العالم الغربي لكن بعد أن دفع من عمره سنوات..

جانيت لم تدر رأسها عن النافذة على المجهول الذاهبة إليه وتأمل أن يكون أفضل.

تطلعت جانيت من النافذة.

وتساءلت.

- هل حرمتُ من باريس إلى الأبد أم سأعود لها في يوم من الأيام؟

لازالت أضواء الأنوار التي كانت تعلَّقُ على الأشجار الممتدة طوليًّا عبر شارع الشانزليزيه تضوي في عينيها الزرقاوين..

تذكرت ذكريات طفولتها.

عندما كانت تلعب مع صديقها ديلون في حديقة المنزل.

يمرحان.

ويركضان بأرجل البهجة.

يركض خلفها ديلون على رمال الشاطئ. يمد يد الغلبة إليها فلا يستطيع أن يقيد انطلاقها وحريتها..

إذا تشاجرا كانا سريعًا ما يتصالحان، وقد نسيا كل ما كان من خصام بريء..

لم يكن يشغل بالهما أي شيء غير اللعب والمرح.

كانت دمعتها قريبةً جدًّا قرب دمعة امرأة حديثة الزواج تحاول أن تزيل قشر البصل لتصنع لزوجها ما لذ وطاب من الوصفات التي أوصتها بها أمها.

تذكرت عندما كانت تجلس في حجرة بيتها مع صديقتها كِرستين تلعبان بالعروسة الأنيقة وتستمعان غناءها ودورانها على خشبة المسرح الصغير..

تسأل نفسها.

هل ستجمعني بهما الأيام مرة أخرى أم ستفرقنا إلى الأبد؟

تتذكر جلوسها مع جدها والد آليتا في مكتبته الكبيرة

الممتلئة بالكتب حيث وصلت صفوف الكتب لسقف الغرفة وقد رصَّها رصًّا منتظمًا لكن مع كثرة الكتب لم يستطع أن يحافظ على ذلك وأصبحت بشكل عشوائي، حيث كان يجلس على كرسي مكتبه وخلفه تلك المكتبة الكبيرة ويشير إليها ويخاطبها وهي بنت عَشر السنوات.

يقول لها:

- يا جانيت هل ترين كل تلك الكتب التي خلفي؟

فترد هي:

- نعم يا جدي.

فيقول:

- كل تلك الكتب تتكلم على أنه لا يوجد إله.

وقد كانت تنظر للكتب تستغرب من كثرتها.

تتذكر عندما كان يجلس على الكرسي الهزاز مبتسمًا ابتسامةَ الساخر وهو ممسك برواية مزرعة الحيوان لجورج أورويل ويقرأ لها منها الجزء الخاص بالغراب موسي، ذلك الغراب الأسود الأليف وعن ادعائه معرفته بلدًا غامضًا يسمَّى جبل الحلوى تنتقل إليه الحيوانات عند موتها وكان يقول إنه يقع في مكان ما في السماء على مسافة قليلة خلف الغيوم وإن في جبل الحلوى جميع أيام الأسبوع هي أيام آحاد والبرسيم

متوفر على مدار السنة وقطع السكر وبذر الكتان ينموان على السياج.

وكان لا يمل من رواية الغريب لألبير كامو حيث البطل الذي ينظر لكل الأمور بمادية بحتة.

ذكريات وذكريات وذكريات..

وكان كلٌّ منهما يتذكر ويجمع كل ما يستطيع أن يحمله مع الحقائب من فرنسا!

يا له من تصور وتصديق جمعه عادل برحلة الغربة جعله يرتجل ويتمتم بكلمات لا يشعر به أحد وهو مستلقٍ على ظهره بالطائرة تلخِّص تصوره عن المجتمع الغربي وعن الحياة عامة قبل ذلك السفر .

تلخِّص فلسفته الشخصية؛ فلكل إنسان فلسفة خاصة به هي خلاصة تجربته بالحياة..

سمعتها جانيت وألقت لها السمع.

ظل يقول:

- عالم جائع.

- مجتمعات جائعة.

- أجساد جائعة.

- نفوس جائعة.

- بطون جائعة.

- عالم جائع.

- الذكرى تقلب عليَّ المواجع.

- هوى في الجوع.

- جاعت فيه نفوس الجبارين للظلم والجور.

- جاعت للدماء.

- للسيطرة.

- لم تشعر تلك النفوس ببطون البؤساء الخاضعة إشفاقًا من الجوع.

- خضوع ورجوع.

- خوفًا من الجوع.

- جاعت فيه الدنيا لقتل عشاقها.

- فماتوا موتًا مفجعًا.

- أحبوا الخضوع لها.

حبَّ الفراشات للضياء والنور.

الجوع كافر إلا..

obeikandl.com

جوع الأوطان للدماء من أجل نقائها وشرفها.

إلا جوع الصالحين للآخرة.

لم يروض الجوعَ إلا عابدٌ لله اشتاقت نفسه لمولاه.

اشتاقت للآخرة.

عرف حقيقة نفسه.

عرف أنه محتاج له.

لا شيء غيره..

انتبهت جانيت لتلك الكلمات ولم تفهم معناها العميق.

معنى عالم جائع..

وبعد ساعات قليلة يستعدون للهبوط بربط الأحزمة..

هبطت الطائرة في مطار أبو ظبي واطمأن الطيار على سلامة الركاب وحمد الله على سلامتهم جميعًا..

وفي لحظة صمت جماعي رسمه إرهاق السفر عليهم يقف أحد الركاب مندفعًا كبترول خام خرج من بين الرمال بصحراء مجدبة صارخًا:

- أرتدي حزامًا ناسفًا ولي مطالب. أبلغوا السلطات الكافرة التي تحكمكم!

obeikandl.com

الجميع أصابه الذهول، وتداخلت أصوات الفزع وصراخ الأطفال والاستنجاد من ركاب الطائرة.

- أغيثونا

- أغيثونا

وصرخت جانيت: لا أريد أن أموت. وأجهشت بالبكاء. أخذها عادل في حضنه يهدئ من روعها، وهو ينظر لذلك الخاطف نظرة استغراب.

- أبي. من هذا وماذا يريد؟

- لا تقلقي بنيتي. كل شيء سيكون على ما يرام.

أغمضت عينيها خوفًا وكأنها لم تجد حلًّا لما هي فيه غير ذلك الحل الذي يشبه الحل الذي تستخدمه النعامة دائمًا عندما تشعر بخطرٍ ما يداهمها حيث تضع رأسها في التراب حيث الظلمة هروبًا من المواجهة.

قالت وهي ترتعد مغمضة العينين ملقاة على صدر والدها:

- لا أدري ماذا يحدث لي!! وماذا يراد بي؟! كأنني بداخل كابوس لا أستيقظ منه.

- سينجينا الله. أغثنا يا الله.

الخاطف يبدو غير متزن كأنه مغيب بشيء ما.

وما أعظمها من غيبة غيبة الفكر!

حيث انعكس ذلك على تصرفاته والتفاتاته وحركات رأسه يمينًا ويسارًا كل دقيقة وما يقوم به من إرهاب للركاب ولطاقم الطائرة.

- صرخ الخاطف: أبلغوااااااا قائد الطائرة ألا يفتح الباب وإلا نسفت الطائرة.

أمسكت إحدى المضيفات ميكروفون جهاز الاتصال مع قائد الطائرة بالكابينة الخاصة به المخصصة بالقيادة، وقالت بنبرة صوت خافت متذبذب يغشاه الفزع:

- آلو آلو. كابتن طارق تسمعني؟ أنا المضيفة سماح.

- نعم.

معنا رجل يرتدي حزامًا ناسفًا، ويهدد بنسف الطائرة إن لم نستجب لمطالبه.

يرد الكابتن طارق بنبرة حادة:

- ماذا تقولين؟

ترد المضيفة سماح بصوت أكثر قوة ممزوج بهلع شديد:

- رجل له مطالب يريد منا الآن أن نبلغها للسلطات حتى يترك الطائرة.

- يرد الكابتن طارق: انتظري مني تعليمات بعد ما أجري اتصالات بالجهات الأمنية.

في الانتظار كابتن طارق.

يصيح الخاطف بصوت يخترق سمع الجميع:

- هل أبلغتِ ما قلت؟

ترد المضيفة سماح بصوت رنان:

- نعم.

ترتفع الهمهمات وصيحات بعض ركاب الطائرة.

يصرخ الخاطف ليحكم السيطرة.

- فليسكت الجميع وإلا نسفت تلك الطائرة اللعينة. فليجلس كلٌّ في مكانه وليتقدم أحد من طاقم الطائرة أبلغه مطالبي.

وبعد مداولات بين قائد الطائرة ومساعده من داخل الكابينة المغلقة من الداخل حرصًا وأمانًا من مثل تلك الحوادث وفرد الأمن والمضيفات بالخارج تتعالى الهمهمة

obeikandl.com

من محيط مناجاتهم وكل الضحايا ينظرون ناحية الطاقم في ترقب كقطيع من الماعز ينتظر نجدة الراعي من ذئب يحوم حولهم.

تقدمت مضيفة الطيران سماح بزي المضيفات الموحد وقد اصفرَّ وجهها. تسير ببطء كأنها تسير على قشر بيض..

سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون التعليمات التي تضمن لهم السلامة من ذلك الخاطف المضطرب الذي يتحكم في مصيرهم الآن وهم ينظرون للمضيفة القادمة بين صفوف الضحايا كسفينة تسير عند القطب الشمالي ببطء بين جبال الثلج خوف الهلاك..

وقفت أمامه كمتهم يقف أمام قاضٍ يخاف النطق بحكم الإعدام.

أظهر الخاطف البأس والتجهم وتلبسته ملامحُ العبوس وتطايرت شذرات الغضب من وجهه الذي لو قاربه عود ثقاب لاشتعل مما فيه من شحنات ثائرة على واقع لا يتلائم مع فكره الغريب.

تناثرت كلمات أمر ونهي من فيه بشكل عبثي لا تفسَّر إلا بجهد.

أطالب بالإفراج عن تلك الأسماء من إخواني المعتقلين

من الإخوان المسلمين وجماعة التكفير والهجرة في ثلاث دول عربية هي مصر والسعودية والإمارات. ومد يده التي كلما تحركت ارتجفت الضحايا وسلم المضيفة ورقة بها الأسماء.

عادت المضيفة بخطوات متباعدة وعشوائية مهرولةً للجانب الأمامي من الطائرة وسلمت الورقة لفرد الأمن وعادوا للمناجاة والهمهمة.

جلس ينتظر تنفيذ مطالبه وكله ترقب وتحفز لتقديم روحه فداءً لما يريد تحقيقه.

مرت الدقائق تزحف ببطء وكلما مرت عليهم أصابتهم بالضيق الدقائق أصبحت ساعات والجميع على وضعه..

كان مقعد عادل بالقرب من الخاطف. فاجأ عادل الجميع بفتح حوار مع الخاطف.

- أنت مخطئ. تخاطر بحياتك من أجل غيرك.

- لا تتحدث فلا أسمع لأمثالك.

أصر عادل على استكمال الحديث وهو ينظر إليه وقد ارتجفت جانيت خوفًا ممسكةً بذراع والدها.

- قال تعالى: قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. وقال: وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلالٍ مبين.

رفع الخاطف عقيرته بصوت قبيح ممتزج بالترهيب تعبر عنه نبرات التهديد:

- نحن نملك كل الحجج والأدلة والبراهين ولا نفعل أي شيء إلا بدليل من الكتاب والسنة. والأفضل لحياتك ألا تستمر في الحديث معي.

خاطبه عادل بخطاب المشفق وبصوت هادئ يكاد يسمعه:

- تعلمت في مدرستي الأزهرية أن مقاصد الشريعة خمسة الحفاظ على النفس وعلى العرض وعلى العقل وعلى النسل والمال فاين أنتم من هذا؟

أدار الخاطف عينيه ككاميرة مراقبة تمسح المكان وتحافظ على السيطرة الوقتية له. وجد الكل في ترقب وفي سكون فقال بصوت جهور:

- نحن ننصر دين الله ومن مات يبعث على نيته.

وجد عادل ذلك الرد مبررًا ليقول كل ما بداخله حيث فتح الخاطف بذلك الرد طاقة أمل بتفكيره فوهة قد يدخل له منها النور:

- هل تبررون القتل بتلك الحجة؟ وما الدافع للقتل؟

إقامة دولة الخلافة؟ إقامة دولة الخلافة معناها تنصيب

حاكم واحد لكل الدول الإسلامية وإنه أفضل من تنصيب حاكم لكل دولة هذا هو هدفكم الأسمى والذي تسعون له بكل جوارحكم وكل ما أوتيتم من قوة؟ ولكن أقول لك إن الواجب هو تنصيب حاكم للمسلمين وقد تحقق ذلك بالفعل سواء أكان خليفة لجميع المسلمين أو حاكمًا لكل دولة. فلو افترضنا أن تنصيب خليفة واحد لكل المسلمين أفضل من وجود حاكم لكل دولة فذلك تحقيق أفضلية وليس تأسيسًا لأصل من أصول الدين، ولا يستدعي ذلك أن تزهق الأرواح البريئة ويضرب بمقاصد الشريعة عرض الحائط وهي لباس دعت للحفاظ على النفس والعرض فما لكم كيف تحكمون؟

اندفع الخاطف بكلمات كالرصاص تكاد تقتل الركاب بدون أن يستخدم أسلحته. الخوف يقتل أحيانًا.

- أنت تدافع عن دولة كافرة فلا يحق لك التكلم ولا يسمع لك فلا تتكلم وإلا أخرستك.

تجلت شهامة عادل وبطولته وقال:

- أتظن أنك ناج بفعلتك هذه؟

حلم الخاطف للحظات بها وهو ينظر إلى الطاقة الدائرية التي يطل منها المسافر على السماء يتطلع للسحاب أسفل منه ..

تناسى الخاطف أن يعقب على ذلك السؤال التهكمي من عادل بكلمة تعنيف يردعه بها أو تهديد يرهب جميع الركاب به. إنما شغله الحور العين اللاتي رآهن يتمايلن أمام عينيه، وأشجار سيقانها من ذهب تطرح ما لذ وطاب، وتراب من زعفران وحصى من اللؤلؤ!!

لم يكن يعلم ذلك الخاطف البائس أن مرآة أفكاره هي التي تعكس له تلك الصور!!

- لقد وضعت إحدى قدميَّ بالجنة فسيخرج مائة من أخوتي المجاهدين لاستكمال الجهاد وسأسبقهم أنا إلى الجنة.

وفجأة يتحدث مسؤول من الأمن على جهاز اتصال بالطائرة بأن الطائرة تحت السيطرة الكاملة من قوات الأمن ويطالبون الخاطف بتسليم نفسه لقوات الأمن ويترك الرهائن حتى يتحسن موقفه عند المحاكمة على ما فعل. وبمرور ساعات من الأوقات العصيبة على الرهائن وعلى الخاطف أيضًا حيث علم أنه لا فائدة مما يفعل بعدما حاصر قوات الأمن الطائرة وأن الطائرة ليس بها وقود كاف للتحرك لمدينة أخرى. رضخ لعمل المنطق، واختار أن يسلم الرهائن سالمين بعد اتصالات الأمن المتعددة له والوعود التي قدموها له بأنه سينال أخف عقوبة ممكن أن يصل إليها خاطف.

(تحقيق الذات)

دخل عادل وجانيت في حالة من الذهول لا ينطقان ببنت شفة. أمسك بيدها وسار بها حتى خرج من المطار بعد ساعات حرجة مليئة بالتوتر أثناء الخطف وبعده مع الأمن والصحافة..

يتجهان في سيارة أجرة إلى الجامعة وكلٌّ منهما يحمل حقيبته على عاتقه وذكرياته في وجدانه ودهشة سكنت ذهنيهما..

بداية الحياة الجديدة بالوطن لم يكن متوقعًا أن تكون بهذا الشكل المتخبط في أخطر شيء وهو الفكر فقد عشنا زمنًا طويلًا ننعم بإسلام وسطي عماده تعاليم الأزهر الشريف..

لكنه لازال متفائلًا مفعمًا بالأمل حيث أصبح على أعتاب تحقيق حلمه بأن يصير عالمًا له مكانة في المجتمع.

تنظر جانيت من نافذة السيارة ترمق المارة بنظراتها. تتطلع إلى المساكن حولها وقد اختلفت عن مثيلتها في باريس وكأن للمساكن حياة وطبيعة وثقافة كما للأشخاص!

توقفت سيارة الأجرة بالإشارة تترقب انبلاج اللون الأخضر ولازالت جانيت تتطلع من خلف زجاج نافذة السيارة على المشاة ترمق المارة الذين يعبرون الطريق

ويرتدون الجلباب الأبيض الذي لم تشاهده من قبل.

نظر عادل لإشارة المرور بألوانها الأحمر والبرتقالي والأخضر وقد أضاءت بالأحمر. يتأملها كتلك الحياة التي نعيشها ..

فهناك أناس لا ينبغي لها أن تسير إلا عندما يتوقف غيرهم عن السير.

فتلك سنة من سنن الحياة الدنيا.

وهناك أناس كتب لهم طريق يمشون عكس سير الطريق الذي يسير به آخرون ولن يصلوا لما يبغون إلا بذلك الطريق المعاكس.

تنهد عادل تنهُّدَة طويلة..

يشعر عادل وكأن روحه عادت لجسده بعودته هو وابنته سالمين من كل ما مر بهما من أحداث مؤلمة بفرنسا ثم بالطائرة. عشقه لوطنه جعله ينسى ما حدث بالطائرة، وساعده على النسيان تلال المأسي والآلام التي كانت أقدامه تتعثر بها بالغربة.

ما أجمله من شعور أن تجد نفسك بوطنك. الشعور يغلب على كل التوتر والترقب الذي هو فيه؛ فعلى الرغم من أنها أول مرة يزور فيها الإمارات إلا أنه يشعر أنه

يعرفهـا جيـدًا وكأنهـا كانـت منطبعـة في وجدانـه.

توجهـا إلى كليـة التربيـة لإنهـاء إجـراءات تعيينـه. لاقـى ترحيبًـا شـديدًا مـن كل مـن يتعامـل معهـا ولم يؤلـه إرشـادًا للوصـول لمـا يسـعى إليـه وكانـت المرحلـة النهائيـة لإنهـاء الإجـراءات الإداريـة هـي الدخـول لمكتـب عميـد الكليـة ليتعـرف عليـه ويسـجل توقيعـه عـلى مسـوغات تعيينـه النهائيـة.

وقفـت جانيـت خـارج مكتـب العميـد بالحقائـب، ثـم دخـل عـادل عليـه بعدمـا أذن لـه بالدخـول حيـث كان العميـد عالمًـا عربيًّـا إماراتيًّـا بملامـح عربيـة أصيلـة، معتـزًّا بالـزي الشـعبي لبلـده وهـو القميـص الأبيـض الناصـع البيـاض وعـلى رأسـه العقـال المميـز وعـلى وجهـه نـور وطيبـة تجلـب الراحـة لـكل من ينظـر إليـه. تقـدم عـادل خطوتـين بعـد البـاب ووقـف ثـم عرفـه بنفسـه:

أنا الدكتور عادل محسن من فرنسا.

آهـا نعـم نعـم نحـن في انتظـارك. أخـبروني بقدومك وسـعيد بكونـك عربيًّـا مصريًّا.

انا أسعد لرجوعي إلى وطني العربي.

يشرفنا أن تكون أحد أعضاء هيئة التدريس.

الشرف لي.

طبعًا اليوم لن تستطيع أن تتناقش في أي شيء، ولنرجئ الكلام في التفاصيل إلى الغد؛ فأنت اليوم مرهق من السفر وقد أعدت الجامعة لك المسكن المناسب لمكانتك العلمية وها هو توقيعي حتى تكون قد أنهيت كافة الإجراءات الإدارية.

أشكركم كثيرًا.

نظر العميد في ملف عنده على جهاز الحاسوب، ثم ضرب جرسًا صغيرًا على مكتبه فدخل رجل أسمر نحيل له شعر أسود قاتم.

- يا طاغور اذهب مع الدكتور عادل وأوصله مسكنه.

مع الرحب والسعة سيدي.

أعطاه توصيفًا دقيقًا للمسكن..

سعد عادل كثيرًا، وشكر العميد على ذلك الترحيب، وتوجه مع العامل الهندي النحيل حيث حمل العامل الحقيبتين وسار أمامهما ببطء ثابت الخطى مبتسمًا حتى لا يشعرهما بمدى ثقل الحقيبتين عليه.

تقدم عادل خطوة حتى يكون بجانبه فيحادثه ليهون عليه ذلك.

سأله عادل مداعبًا: هل اسمك طاغور حقًّا؟

- نعم سيدي.

- نِعم الاسم أن تسمَّى على اسم عظيم مثل هذا الرجل الشاعر والفيلسوف العظيم.

- لا شك في ذلك فكم أنا سعيد باسمي الذي جعلني اقرأ كلَّ كلمة كتبها العظيم طاغور حتى أكون مستعدًّا للكلام عنه مع من يحدثني عن شعره بحكم تشابه الأسماء بيننا.

_ قرأت له أنا أيضًا أشعارًا مترجمة للفرنسية. كم هو حكيم! لازلت أتذكر من حكمه الكثير وأعظمها أثرًا في حياتي تلك الحكمة التي تقول:

سأحطم الحجر

وأنفذ خلال الصخور

وأفيض على الأرض واملؤها نغمًا

سأنتقل من قمة إلى قمة ومن تل إلى تل

وأغوص في واد وواد

سأضحك بملء صدري وأجعل الزمن يسير في ركابي

لم يستطع عادل أن ينهي تلك الكلمات للخالد طاغور إلا

ممزوجة بدموع يعالجها ويدفعها حتى لا تسيل على مقلتيه ويظهر شيء مما داخله عن تجربته الإنسانية المريرة في الحياة، حيث مس كل حرف في تلك الحكمة شيئًا من أوجاعه وتحدياته.

نظرت جانيت له وقد تملك منها الفخر بذلك الرجل الذي ناضل من أجل الوصول لتلك المكانة عالميًا جامعيًا.

ابتسم طاغور ثم قال:

- نعم تلك حكمة عظيمة له ولكني يعجبني أقواله عن الحب أكثر؛ فمثلًا قوله: الحب يلمع كلؤلؤة في ظلام القلب البشري، وقوله أيضًا: آمن بالحب ولو كان مصدرًا للألم ولا تغلق قلبك.

- نعم.. حكمه تنم عن فلسفة عالية. أعتقد أن سر عظمته ثقته في قدرته بأنه يستطيع أن يحطم كل عقبة وقد تجلى ذلك في قوله: سئل المستحيل: أين تقيم؟ فقال: في أحلام العاجز.

- أسعدني الكلام معك دكتور فقد بهرتني ثقافتك العالية.

- وأنا أيضًا سعيدٌ بالكلام معك طاغور فللحديث شجون.

ركبا سيارة الجامعة يتقدمهما الخادم؛ فدائمًا خطوته تسبق

خطواتهم حتى وصلوا جميعًا إلى مكان السكن المعدِّ لهما.

فيلا جميلة من دور واحد ومطلية بالطلاء الأبيض بها حديقة وسور يتخلله باب خشبي صغير.

فتح العامل الباب الذي لا يتعدى ارتفاعه المتر ويظهر من خلفه جمال الحديقة وروعة المنزل، وصعد بهم درجات السلم الأربع، ووقف على الباب، وأعطاهم المفتاح، وتمنى لهم نومًا هادئًا وحياة سعيدة بكلمات عربية لكنها من لسان أعجمي، ولم يستغربا ذلك منه؛ فصعب على أي رجل غريب أن يتقن العربية نطقًا وفهمًا. قد يتحدث بها ويفهم ما يقال له لكنه صعب يتحدث بها كأبناء جلدتها والعرب الأقحاح.

كانت ملامحه الهندية بشعره الناعم وسمرته مناسبة جدًّا للكنته المتلعثمة.

دخلا المنزل وتفقداه غرفة غرفة وسعدت جانيت به لاستقلاليته عن المشاركة وهدوئه.

وفي صباح اليوم التالي ذهب عادل للجامعة لكي يتناقش بخصوص المنهج وميعاد الدراسة وطرق التدريس في الجامعة. استقبله العميد الوقور في مكتبه بكل ترحيب وذهب معه لقسم علم النفس بالكلية.

قرأ بعض قوانين الجامعة وتناقش معهم في بعض المسائل الإدارية المعتادة كمسوغات تعيين، وأخذ منهم ملف المنهج وعرف ميعاد بدء المحاضرات.

جلس عادل في منزله يراجع مادته العلمية فيما يخص المنهج المحدد للطلبة قسم علم النفس، وقام بترتيب العناصر التي سينطلق منها لشرح المنهج.

وجلست جانيت بالمنزل تتأمل المجتمع الجديد الذي جاءت إليه تنتظر عودة والدها من عمله بالجامعة.

فكل شيء مختلف.

المساكن مختلفة عن مساكن باريس.

اللباس مختلف.

طبيعة الحياة مختلفة.

كانت يومًا بعد يوم تخرج صندوقها الصغير من الحقيبة وتخرج منه صورها مع صديقها في فرنسا وبعض الهدايا التذكارية من صديقتها، ومرت أيام وليالٍ وهما في ذلك البيت الجميل الهادئ..

وفي أول يوم من شهر أبريل، ذهب عادل للجامعة يستكشف لو كان صدر له مرتب شهر مارس كما وعده. وجد اسمه في كشوفات الأساتذة وأن له مرتب شهر. سعد

كثيرًا، وحصل على ثلاثين ألف دولار ..

مرتب كبير يكفيه لحياة كريمة، ويؤمن مستقبله. ذهب عادل إلى المنزل وطلب من جانيت أن تجهز لكي يخرجا لشراء بعض المستلزمات من المتجر الكبير بأبو ظبي، وخرجا للتسوق وقد تعطرت الأيام بعطر تحقيقهما لذاتهما.

منصب ومكانة اجتماعية مرموقة وكذلك المال كافٍ لشراء كل ما يريدان ويتمنان.

نظر عادل في المحلات فهي لا تختلف عن محلات باريس كثيرًا .

فجميع الماركات العالمية موجودة بها ملابس وساعات.

تفاجأت جانيت عندما وجدت محلات ملابس أطفال ونساء بها أفضل الماركات العالمية.

كريستن ديور، وليي وليفيز وجميع الماركات التي لم تكن تتوقع أن تجدها في أبو ظبي.

جميع موديلات السنة موجودة. يا له من شيء رائع!

خرج عادل وهو يحمل الحقائب المحملة بالملابس الفاخرة والساعة الرولكس السويسرية، ووقف خارج المتجر ينتظر سيارة تنقلهما إلى المنزل.

ووقفت جانيت حاملة حقائبها ذات الألوان الزاهية

الأصفـر والأخـضر والأبيـض.

أشـار عـادل لسـيارة أجـرة تاكـسي فلـم تقـف. لم يعبـأ بذلك؛ فـذاك أمـر قـد يحـدث كثـيرًا في مـصر، وكذلـك في باريـس لكـن سـيارة النجـدة التـي تقـف بجانـب المتجـر لم يعجبهـا ذلـك فسـارت مسرعـة وبعـد دقائـق عـادت وقـد جـاءت بسـيارة الأجـرة التـي امتنعـت عـن الوقـوف، وتأسـفت لعـادل وطلبـت منـه أن يتفضـل بالركـوب!!

تعجـب عـادل من ذلـك الموقـف الـذي تتحقـق فيه الإنسـانية مـع الانضباط..

مـرت الأيـام وقـد تأقلـم عـادل مـع الجـو العـربي الخليجـي لمـا فيـه مـن المحافظـة عـلى الأصـول ولمـا يغلـب عليـه مـن الهـدوء والأمـان.

كان يذهـب كل يـوم للجامعـة. يجلـس في قسـم علـم النفـس مـع الأسـاتذه يتناقـش في المـادة العلميـة حتـى تنتهـي سـاعات العمـل المحـددة فلـن يتمكـن مـن التدريـس للطلبـة إلا في العـام الـدراسي القـادم حيـث إن هـذا العـام الدراسـة مسـتمرة فيـه على جـداول وخطـط موضوعـة مسـبقًا.

ثم يعود للمنزل يجد جانيت قد أعدت الطعام.

وذات يـوم لم يدخـل عـادل عـلى جانيـت وحـده إنـما دخـل

ومعه باميلا!

إنها الخادمة الإندونيسية التي ستعمل في منزلهم؛ فقد عرضها عليه رئيس القسم وأخبره أن أختها تعمل عنده منذ سنوات وأنها أمينة ومطيعة مثل أختها.

نظرت جانيت في عينيها الضيقتين فوجدت فيهما حنانًا كانت تفتقده.

جلست جانيت تتحدث معها بالإنجليزية وكانت سعيدة بها جدًّا.

ظلت باميلا تعمل بالمنزل في صمت، وكانت مثالًا للخادمة المطيعة المعطاءة، ولقد أحبتها جانيت كثيرًا وكانت من الحين للآخر تجلس معها وتتحاور عن طبيعة مجتمعهم الإندونيسي وعن أسرتها وكانت تسعد بذلك جدًّا.

ولم تستغرب جانيت من عادات وتقاليد قوم مثلما استغربت من كلام باميلا عن عادات بعض سكان أحد جزر إندونسيا الذين لهم يوم معين في العام يذهبون فيه إلى القبور ويستخرجون كبير عائلتهم المدفون منذ أكثر من مائة عام وقد أكل على جثته الزمان وشرب وأصبح أخضر اللون من المواد التي وضعوها عليه والتي تمنع تحلل الجثة وصار جلدًا على عظم.

ويجلس أفراد كل عائلة أمام جثة ذويهم المحنطة!!

ثم يضعون عليها الزهور والورود.

إنه وفاء من نوع خاص لكبير العائلة!!

بأن يستخرجوا رمته! أمر عجيب وغريب؛ فالحنين للأصول طبيعة بشرية جبل عليها الإنسان، لكن الجميع يحن لأقرب مذكور ولا تجد أحدًا يحن إلى أصل الأصول وهما أبونا آدم وأمنا حواء إلا قليل القليل. فلو تعمقت الفكرة لدى الجميع لبحثنا عن أواصر الإنسانية والرحم التي صممنا وعمينا عنها، فلقد صدق علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال:

إن الناس صنفان: إما أَخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق.

أو بمعنى آخر أَخٌ لك في الإنسانية.

عادات وتقاليد وأديان ومعتقدات وثقافات شعوب كلما تعارفت تقاربت وعلمت أنها كلها لآدم تعود..

ومن يعش كثيرًا يَرَ كثيرًا..

(كون فسيح)

واعتاد عادل على الجلوس بشرفة منزله الجديد وقت الأصيل حتى غروب الشمس يحتسي القهوة التي اعتاد على احتسائها في ذلك التوقيت من اليوم حيث كان يضع فنجان القهوة عن فيه من آخر رشفة وقد أوشك قرص الشمس المتوهج على الانزواء..

وليس أمتع له من مزاولة هواية القراءة في تلك السويعات التي يستجمع فيها تركيزه وهدوءه وطمأنينته..

بحثت جانيت عن والدها في البيت فلم تجده، فنظرت من بعيد ناحية الشرفة فوجدته جالسًا ممسكًا بالجريدة وأمامه فنجان القهوة التي اعتاد على احتسائها دومًا.

توجهت إليه لتخبره عن سعادتها البالغة بباميلا.

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة وأعاد النظر للجريدة متمعِّن النظر في خبر ما مستغرقًا في التفكير.

أثار ذلك فضول جانيت، فنظرت معه لذلك الخبر كما يفعل جار السفر بالقطار لمن يحمل جريدة فتلاحق نظراته كل خبر في خلسة وكأن تطفل القراءة داء يصيب كل مجاور لممسك بجريدة بسفر.

نظر إليها وقال:

- ياجانيت اقرئي ذلك الخبر.

وأشار بإصبعه نحو خبر بأعلى الصفحة يسارًا كُتب فيه: جدل في الأوساط الدينية حول تجارب الاستنساخ بعدما نشرت مجلة نيتشر العلمية أبحاث بعض العلماء في ذلك..

نظر لبنته جانيت ثم قال:

- أتدرين يا جانيت؟! ذلك الكون الذي نعيش فيه فسيح جدًّا. شاسع إلى أبعد مدًى ممكن أن تتخيليه أو يرد بخاطرك.. فكل إنسان بالنسبة للكوكب الذي نعيش فيه كذرة رمل في صحراء شاسعة. ونسبة الكوكب الذي نعيش فيه بالنسبة لحجم المجموعة الشمسية التي تضمه بون شاسع بينهما يتجلى به أن حجم كوكبنا شيء ضئيل جدًّا بالنسبة للمجموعة الشمسية، فنسبة حجم الأرض لحجم الشمس تساوي نسبة واحد إلى مليون وثلاثمائة ألف. والمجموعة الشمسية التي تضم كوكبنا بالنسبة للمجرة التي تضمها كذرة رمل في صحراء شاسعة، والمجرة التي ننتمي إليها بالنسبة للكون الفسيح كذرة رمل بالنسبة لصحراء شاسعة.. والكون الفسيح بالنسبة للسماء الأولى كذرة رمل في صحراء شاسعة، والسماء الأولى بالنسبة للثانية كذرة رمل في صحراء شاسعة، وكذلك نسبة كل سماء للتي تعلوها فما

أعظـم خلـق الله!

_ يـاه نحـن بالنسـبة لذلـك الكـون الفسـيح نـكاد نكـون لا شيء يـا أبي.

_ نعـم بنيتـي لكـن الله وضـع بـكل فـرد منـا أسرار عظمتـه فنحـن صنـع الله كـما ذلـك الكـون المبهـر، وفينـا وضـع الله سره الأعظـم، ذلـك الـسر الـذي يتجـلى في أدق أدق جزئيـات ذلـك الكـون الفسـيح. فكـما بينـت لـكِ نسـبة كل فـرد بالنسـبة لحجـم الكـون هنـاك نسـبة أخـرى أكثـر دقـة وهـي نسـبة جينـات كل فـرد يعيـش عـلى وجـه الأرض بالنسـبة لحجـم ذلـك الفـرد ومنهـا لحجـم الكـون كلـه؛ ففـي جسـم الإنسـان حـوالى ثلاثـين تريليـون خليـة بشريـة جسـدية. كل خليـة جسـدية منهـا بداخلها نـواة تحتـوي تلـك النـواة عـلى سـتة وأربعـين كروموسـومًا بـه الحامـض النـووي أو البصمـة الجينيـة التـي تكسـب الإنسـان كل مـا عليـه مـن صفـات تميـزه، وتحتـوي الخليـة البشريـة الواحـدة عـلى مائـة ألـف جـين وراثـي يعمـل منهـا حـوالي عـشرة بالمئـة والباقـي يظـل كامنًـا يـورث، والباقـي سر مكنـون..

_ ما كل هذه الأرقام التي تحفظها يا أبي عن ظهر قلب؟

_ يا بنيتي هذا أقل القليل وما لا يدرك كله لا يترك كله.

_ نعـم أبي لكـن هـذا مجـال بعيـد عـن حياتنـا اليوميـة إلى حـدٍّ ما .

_ لا بنيتي هذا المجال في صميم حياتنا وهو ثورة القرن القادم الطبية؛ فعلم الهندسة الوراثية والبيولوجية الجزيئية سيكونان أساس طب القرون القادمة، فستكون خاتم سليمان ومصباح علاء الدين لعلاج معظم الأمراض الوراثية التي عجز الطب عن علاجها حتى الآن، فقد بدأ منذ 14 سبتمبر 1990 عصر جديد هو عصر العلاج الجيني ففي ذلك التاريخ تم علاج طفلة ولدت بخلل جيني موروث جعلها مصابة بمرض يشبه تمامًا مرض الإيدز دون وجود عدوى بفيروس ما وبفضل ذلك العلاج الجيني استطاع فريق من الأطباء بقيادة الطبيب الأمريكي فرنش أندرسون علاجها.

_ شيء مذهل يا أبي دائمًا تبهرني ثقافتك.

_ إن المعرفة بالنسبة لي هواء يستنشق فيجدد حيوية الخلايا الروحية.

_ نعم أبي ولكن لم أكن أتخيل أنك تقرأ في هذا المجال الدقيق المتخصص.

_ العلم بالشيء أفضل من الجهل به وخصوصًا ما يتعلق بجسد الإنسان الذي كرمه الله.

_ درست يا أبي الجينات وعلمت أن بعض العلماء أسماها سر الكون.

_ نعم لكن الخطر كل الخطر بنيتي إذا ظن الإنسان أنه يستطيع أن يكشف سر ذلك الكون وسر الحياة؛ فكل ما وصلنا له من علم لا يساوي حبة رمل في صحراء شاسعة من علم الله. ما أجهل الإنسان حين يظن أنه يقدر كقدرة الله ينقلب علمه عليه لعنة.

_ لكن الله أمر بالعلم والبحث يا أبي وقد علمت أن استنساخ نعجة قد تم وسيفيد البشرية.

_ نعم أمر الله باتباع العلم. يكون ذلك بالبحث والتجربة فيما ينفع الإنسانية وهو ما يسمى بالعلاج الجيني حيث تعالج من خلاله حالات يصعب علاجها بالدواء التقليدي لكنه لم يأمر بالعبث بسر الكون ولا بأن يتجرأ الإنسان وأن يقدم على تجارب يظن منها أنه يقدر على الخلق.

_ وهل تجرأ أحد على أن يفعل ذلك يا أبي؟

_ نعم محاولات العبث بالجينات كثيرة منها ما هو معلن عنه ومنها ما هو غير معلن عنه. قرأت من حوالي خمس سنوات أو يزيد قليلًا أن طبيبين لأمراض النساء يعملان في مجال أطفال الأنابيب اسمهما ستيلمان وهول قاما باستنساخ أجنة، فقد قاما بتلقيح حيوان منوي ببويضة خارج الرحم وبعد أن تبدأ النطفة في الانقسام وتكوين خليتين يحيط بها غشاء للتغذية يسمى زونا بيلوسيدا أضافا إنزيمًا معينًا لإذابة

هـذا الغشـاء الـذي يجمـع بـين الخليتـين داخلـه فيتـم تقسـيم محتـوى النطفـة فيكـون الناتـج نطفتـين متطابقتـين متشـابهتين مـن حيـث الشـكل والتركيـب الجينـي تحملان نفـس الصفـات الوراثيـة وتتـم إضافـة مـادة أخـرى تشـبه مكونـات الغشـاء المحيـط لـكل نطفـة ولكـن فشـل ذلـك وماتـت الأجنـة بعـد سـتة أيـام.

_ أمر غريب. وهل هناك تجارب سرية أبي؟

_ نعـم سـمعت أن هنـاك علـماء يجـرون تجـارب استنسـاخ بـشري بحيـث توضـع محتويـات خليـه جسـدية مـن المستنسـخ منـه في بويضـة منزوعـة النـواة مـع عوامـل تحفيزيـة، وفي ظـروف معمليـة معينـة لكـي يخـرج صـورة طبـق الأصـل مـن صاحـب الخليـة الجسـدية.

_ شيء مرعب أبي ومخيف.

_ ليـس مرعبًـا ومخيفًـا فحسـب لكنـه نهايـة العـالم في نظـري. إننـي أعتقـد أن يأجـوج ومأجـوج الذيـن جـاء ذكرهـم في القـرآن الكريـم وفي أحاديـث النبـي محمـد ص هـم نسـخ مستنسـخة مـن البـشر وإن مـن كل ألـف رجـل سـيكون هنـاك رجـل غـير مستنسـخ وباقـي الألـف هـم نسـخ ملعونـة تسـعى في الأرض فسـادًا تهلـك الحـرث والنسـل ولـن يسـتطيع أحـد عـلى تخليـص البشريـة منهـا إلا الله. أنـا مـع العلـم جانيـت ولكـن لابـد أن يعلـم كل إنسـان أن مهـما وصـل في العلـم فلـن يسـتطيع أن يخلـق

حشرة صغيرة؛ فالمخلوق مخلوق مهما بلغ من علم والخالق خالق عليم حكيم. بنيتي هلاك البشرية سيكون على يد مُتَحدِّي الله. أتدرين أنني فسرت حديث النبي الذي فيه أمارة قيام الساعة بالاستنساخ؟!

_ كيف يا أبي!!

_ يقول حديث النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عن أمارات الساعة فقال النبي: أن تلد الأمة ربتها. وأعتقد أن ذلك هو الاستنساخ حين يوضع خلية جسدية من الملكة أو إحدى نساء الملأ والصفوة في بويضة منزوعة النواة من بويضات الأمَة فتلد نسخة طبق الأصل من ربتها.. عندها تنتهي البشرية وتقوم الساعة على شرار الناس.

_ صدق رسول الله. سأخلد إلى النوم يا أبي فلقد غلبني النعاس ولولا أهمية الموضوع لنمت في منتصف الحديث.

(هنا نعيش ...)

مرت أربعة أشهر سريعًا. ثمة الأيام التي تتشابه وتتابع وتسرق من عمرنا شيئًا فشيئًا..

اشترى عادل سيارة صغيرة صناعة يابانية وسعد بها جدًّا وكذلك جانيت، وأصبحت جميع الزيارات ورحلات التسوق تتم بها حيث المكيف والخصوصية وسماع المسجل حيث يشدو منه صوت بلبل الخليج نبيل شعيل..

اشتاقت جانيت لوالدتها وقد طال الانتظار وتتوقت لحياة سعيدة مثالية تجمعها بوالديها مرة أخرى.

- ألم تخبرني يا أبي أن أمي ستلحق بنا؟!

- نعم.

- متى؟

- قريبًا

- كثيرًا ما أسألك يا أبي عنها وتجيب نفس الإجابة.

- يا جانيت لابد أن أخبرك بحقيقة ما يدور حولك فلابد أن تعرفي كل شيء.

هـل انفصلتـم إلى الأبـد؟ كنـت أظـن أن خلافكـم خـلاف تقليـدي كالمعتـاد وسـيزول.

لا يا جانيت لقد كانت النهاية مع والدتك.

مـدَّ عـادل يـده ناحيـة المسـجل وأغلـق المـؤشر حتـى لا تتداخـل الأصـوات.

لم أكـن أتوقـع أن تكـون النهايـة لتلـك الأسرة لسـبب وحيـد وهـو أن أمـي ستتمسـك بي وكنـت أظـن أننـي رابـط قـوي بينكـما.

يـا بنيتـي إن أمـك تريـد التحرر مـن كل شيء وتريـد أن تعيش حيـاة جديـدة بـلا أي أثـر لحياتهـا القديمـة حتـى ولـو كان هـذا الأثـر أنـت فهـي ترغـب في العيـش مـع رجـل جديـد وتعيـش كأنهـا ابنـة العشريـن.

إنني ابنتها.

نعـم ابنتهـا لكنهـا تفضـل نفسـها وعيـش حيـاة جديـدة عـلى أن تتمسـك بـماضٍ يربطهـا بي حتـى ولـو كان هـذا المـاضي أنـت.

ولا حتى الوداع.. لم تودعني يا أبي.

بكت جانيت وسالت دموعها على خديها.

لا تبكي يا جانيت فهم في الغرب اعتادوا تلك الأشياء وينتشر هناك التفكك الأسري وأنا معك وستظلين في عينيَّ دائمًا وسأعيش حياتي كلها من أجلك.

كم تعبت من أجلي يا أبي، وكم سهرت يوم إجازتك بجانبي. عندما كنت أذاكر دروسي كان حنانك يغمرني وتضيء أيامي.

لم يكن يتوقع عادل أن الوصول لأقصى لحظة من السعادة بالعربية الجديدة ستكون لحظة فتح الجرح وكشف الحقيقة المؤلمة لابنته فدائمًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

ومرت الأيام حتى جاء العام الدراسي الجديد ولبست جانيت الزي المدرسي وكانت تبدو فيه كأميرة جاءت من كتاب ألف ليلة وليلة. فعلى الرغم من أنها في السادسة عشرة من عمرها إلا أنها تبدو أكبر من ذلك بكثير..

ركبت مع والدها السيارة حتى يوصلها للمدرسة قبل أن يتجه للجامعة ليلقي أول محاضرة على طلاب جامعة أبو ظبي في كلية التربية قسم علم النفس.

نزلت جانيت أمام المدرسة وقد علاها نور العلم ونظرت نظرة عامة عليها ثم نظرة لأبيها في السيارة فابتسم لها ابتسامة الرضا عنها والتحفيز للإقدام على المستقبل المشرق الذي يرجوه.

تقدمت جانيت بخطوات حمقاء غير منتظمة.

سار عادل بسيارته متجهًا للجامعة وكله ثقة في نفسه ورغبة في إثبات الذات.

دخل عادل قاعة المحاضرات فوجد الطلبة في الانتظار.

فهم ينتظرون الدكتور الفرنسي.

القليل منهم من يعرف أصله المصري.

ونظرًا لدراسته لعلم النفس فهو يعلم أن الانطباع الأول يدوم وأن له تأثيرًا كبيرًا على التصور والتصديق لما يستقر في الذهن.

فبادرهم بالحديث عن أصله العربي حتى يلمس روح الانتماء العربي عندهم ويشعرهم أنه منهم فيستوعبونه ويحتوونه فقال:

- لقد قيل لكم إن محاضرة اليوم للدكتور الفرنسي عادل محسن.

الاسم يبدو غريبًا ولا يتناسب مع كوني فرنسيًّا! فهذه رحلة كفاح وجد وتعب بدأتها في مصر حتى حصلت على البكالوريوس ثم سافرت لفرنسا وذاكرت وتعبت حتى حصلت على الدكتوراه. لم أترك مهنة لم أعمل بها في فرنسا. غسلت أطباقًا وبعت جرائد وأنا الآن دكتور في علم النفس

أمامكم حاصل على الدكتوراه من فرنسا، وجاءتني الفرصة لأعود إلى وطني العربي وها أنا الآن بينكم. فأول درس أود أن أعلمكم إياه أن من جد وجد ومن زرع حصد ومن طلب العلا سهر الليالي.

وتجاوب الطلاب مع عادل بحالة من التصفيق الحار تعبر عن استيعابهم أول درس من دروسه لهم وهو درس في الطريقة المثلى للتعامل مع الحياة.

ثم بدأ في أول دروس المنهج قائلًا:

- علم النفس

العلم هو التصور المطابق للواقع المصحوب بدليل.

والنفس هي الكيان الإنساني وهو مزيج بين الروح والجسد.

وعلم النفس هو العلم المختص بدراسة السلوك والعقل والشخصية.

ثم شرح تلك التعاريف وجميع الطلاب كلهم آذان صاغية.

انتهى عادل من أول محاضرة بنجاح منقطع النظير مع تصفيق من الطلاب في نهاية المحاضرة تقديرًا له ولكفاحه في الحياة ولصراحته.

obeikandl.com

خرج عادل من المحاضرة وذهب للمنزل منتظرًا عودة ابنته من المدرسة.

كان في حالة نفسية جيدة بعد نجاحه في المواجهة مع الطلبة وملئه لمركزه..

دخل إلى المطبخ وشرع في تجهيز الطعام لنفسه ولجانيت وكله حماسة وتحفز لمزيد من العمل والإنتاج.

استغربت الخادمة الإندونيسية لكنها رأت السعادة على وجهه فتركته يعيش ما يحب!

عادت جانيت من المدرسة بعده بساعة من وصوله، ولكن كانت تلك الساعة كافية لكي يقوم بتجهيز الطعام لتقديمه ساخنًا لها.

جلس أمام المائدة في انتظارها وقد صنع بيده طعام الغداء.

وجدت الطعام جاهزًا تفوح منه رائحة تسيل اللعاب. جلست أمامه وتناولت معه الغداء.

داخلته سعادة غامرة بما حققه اليوم بعمله ويريد أن يتوج ذلك الشعور بالسعادة بسماعه من جانيت ما يأمله، فسألها عن انطباع أول يوم دراسة؟

لكن للأسف كان الردُّ صادمًا له!

_ شعرتُ بوحشة شديدة.

_ أمر طبيعي جدًّا لأنك قادمة من ثقافة مختلفة لكن لابد أن تندمجي سريعًا.

_ أتمنى. لكن لا أظن.

_ لماذا تقولين ذلك؟

_ لا أدري. لكن.. شعور داخلي.

_ تفاءلي بالخير تجديه يا جانيت.

_ سأحاول. ولكنْ لي سؤال قد يكون غريبًا أو قد يكون ساذجًا. قد يكون غير وجيه..

_ تفضلي.

_ لماذا يرتدي كثيرٌ من الناس في البلاد العربية ذلك الجلباب التقليدي وتلك الملابس التقليدية؟

ابتسم عادل وتناول شريحة من البطاطس كانت في يده وهو ينظر بعين العطف والإشفاق لجانيت بحسٍّ أبويٍّ عالٍ ثم قال لها:

_ سأجيبك على ذلك السؤال بقصة. تسمحين لي أم ستقولين: لقد حرمني أبي من تناول الغداء؟

_ ها ها ها. لا يا أبي تفضل؛ فلقد تعلمت في فرنسا أن

obeikandl.com

أكـون عمليـةً وأنصـت وأنـا أتنـاول الطعـام، وأتعامـل مـع كل الأطبـاق المتواجـدة عـلى المائـدة.

_ كان ببريطانيـا طبـاخ متميـز شـهير عالمـي يُشـار إليـه بالبَنان. كان جامعـة متخصصـة في طبـخ أشـهى المأكـولات، يشـارك في التحكيـم بمسـابقات عالميـة في الطبـخ بأرقـى فنـادق العـالم. الحكـم النهائـي دائـمًا لـه. يتـذوق ويحكـم بـكل شـفافية وحـزم بخـبرة السـنين. اعتـماده لطبـاخ يسـاوي حصـول ذلـك الطبـاخ عـلى شـهادة الدكتـوراه في الطبـخ. لا توجـد طبخـة في أوروبـا أو أمريـكا يجهلهـا. كان يطـوف بالبلـدان يتعلـم طـرق طهي شـعبية محليـة لشـعوب العـالم؛ وفي إحـدى زياراتـه لجنـوب شرق آسـيا ذهـب لقريـة تصنـع معظـم أكلاتهـا مـن الأرز. الأرز يدخـل في كل أكلاتهـم تقريبًـا. طـرق شـتى وعديـدة لصناعـة وطهـي الأرز. والغريـب أنهـم يدخلـون الأرز في صناعـة الحلـوى! صنعـوا لـه طبـق حلـوى مـن الأرز مشـتركًا مـع مكونـات أخـرى بسـيطة بتوليفـة عجيبـة ثـم تـذوق. لم يكـن يتوقـع ذلـك المـذاق اللذيـذ العجيـب الشـهي المختلـف ثـم قـال كلمـة عجيبـة: أشـهد بـأن مـذاق تلـك الحلـوى المصنوعـة مـن الأرز ألـذ وأشـهى مـن الشـيكولاتة الروشـيه (فيرريرو روشـيه) أشـهر مـاركات الشـيكولاتة في العـالم!! انظـري لتلـك القصـة كيـف صنـع هـؤلاء حلـوى ألـذَّ مـن أشـهر مـاركات الشـيكولاتة التي يتهافـت عليهـا الأغنيـاء في العـالم بمكونـات بسـيطة. يتناولـون

شيئًا منها ويستمتعون بذلك الطعم الرائع بعد كل وجبة بأكلة شعبية بسيطة.. البساطة هي كلمة السر في جمال كل شيء. ذلك الجلباب جماله في بساطته وشعور الراحة الذي يشعر به المرء بعد ارتدائه.. كما أن ذلك الجلباب جزءٌ من ثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا الجميلة؛ ولو نظرتِ بشكل منطقي بحت تجدين أنه لا علاقة منطقية بين الملابس وبين التقدم العلمي والحضاري؛ فالجهة منفكة تمامًا ولا يوجد أي ارتباط منطقي بينهما.

شعر عادل بالقلق على جانيت؛ فهي فلذة كبده، وهي نور عينيه، وطمأنها بكلمة أبوية حنون وأنها ستتعايش مع الأيام وستعتاد على تلك اللهجة الخليجية التي قد تكون حاجزًا بينها وبين زميلاتها، وستفهمها يومًا بعد يوم، وبمرور الأيام ستكون صديقة لكل الطالبات بالمدرسة.

انسحبت جانيت من ذلك الحوار.. توجهت لغرفتها، وأغلقت الباب حيث هدوء السكن بغرفة خاصة، وانزوت بركن من أركان الغرفة الواسعة، وجلست القرفصاء، ووضعت كلتا يديها على ركبتيها وتشابكت أصابعها وقد شعرت بالغربة والحنين لأمها التي تركتها ولم تعبأ بها ولم تتكلف الإشفاق عليها بسؤال.

امتلأت عيناها الزرقاوان الساحرتان بدموع قلة الحيلة وغلبة القدر.

نظرت لجانب الغرفة الأيمن ناحية الأرفف الموضوع عليها بعض العرائس المحببة لها وصندوق ذكرياتها الذي حملته معها من باريس. توجهت إليه تجرجر ذيل ثوب الحنين، وفتحت ذلك الصندوق الذي يحمل بداخله أجمل الذكريات..

جلست تتأمل الأصداف التي كانت تجمعها من ساحل الشاطئ مع ديلون وكريستينا. كم اشتاقت إليهم.

ثم أغلقت صندوق الذكريات، وجلست تقلِّب بلحظات مختلفة عاشتها في ذلك اليوم الذي لن تنساه حيث إنه أول محاولة للاندماج مع المجتمع الجديد..

تذكرت أجواء أول يوم دراسي التي لم تزدها إلا ضيقًا وحرجًا وحزنًا وهمًّا..

فقد استغربت كل شيء منذ قدومها أبو ظبي..

فكل شيء مختلف عن فرنسا..

الطبيعة المجتمعية.

الطبيعة البشرية.

تتذكر مباني المدرسة العريقة بباريس وقد زينتها لوحات الطلبة عن الثورة الفرنسية والأعلام وصور الديك الفرنسي الشهير.

تتذكر لحظات عادية لكنها جميلة لذلك علقت بجدار الذاكرة كلوحة فنية لمنظر طبيعي خلاب.

عندما كانت تراقب هطول الأمطار من النافذة على الأشجار التي قارب عمرها القرن والموجودة بالفناء.

ملابسها غير مثيلتها في باريس.

طريقة التدريس.

طباع المعلمين.

الطالبات..

تشعر بهوة بينها وبينهم.

وعلى الرغم من أنها تعرف العربية إلا أنها لم تفهم لهجة الطالبات الخليجيات فاللهجة مختلفة عن اللهجة المصرية التي تعرف عنها الكثير فقد استغربت لهجتهم كثيرًا..

وقد مرَّ عليها يوم دراسي كامل بغير أن تتكلم مع إحداهن بكلمة واحدة، فقد اكتفت بنظرات متفرقة كسهان هبط بالخريف على سفينة يستريح من معاناة الهجرة ويوزع النظرات يمينًا ويسارًا خوفًا..

تنظر لكل من حولها من طالبات.

تستكشف وجوههن كمصور محترف..

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت جانيت للمدرسة وهي تأمل في تحقيق صداقات تحقق لها الاندماج في ذلك المجتمع الجديد عليها.

دخلت جانيت الفصل، ومرت بجوار زميلاتها تلاحقها نظراتهم الاستكشافية؛ فهي تبدو كفتاة فرنسية فهي لها عيون زرقاء، وشعر أصفر كخيوط الذهب، وجمال ملفت وأخاذ، ويجعل أي إنسان يستريح بالنظر إليها حيث تظهر على وجهها البراءةُ أيضًا.

جلست جانيت في آخر مقعد بالفصل ولم يمنعها ذلك من متابعة ما يدور حولها من محادثات جانبية بين زميلاتها عنها وكثرة الهمهمات والإشارة تجاهها بالأصابع وبالأعين ولم يوقف تلك الهمهمات إلا المدرس الفلسطيني الذي يدرِّس اللغة العربية؛ فلقد أخذن عنها انطباعًا بالغرور لعدم كلامها معهن ولو كلمةً واحدةً.

هل لعدم فهمها للهجة الخليجية؟

هل اختلاف الطباع هو المانع؟

هل اختلاف المجتمع الذي نشأت فيه عن المجتمع العربي الخليجي؟

هل أمر خاص بها هي شخصيًّا؟

لم تعرف السبب، لكن ليس المهم معرفة السبب لأن النتيجة واحدة وهي الانزواء في آخر مقعد بالركن الشمالي للفصل؟!

ظلت جانيت على تلك الحالة أيامًا وشهورًا..

لم يكن يسلي قلب جانيت إلا شيء واحد، وهو رحلة بالدراجة في يوم العطلة بعد شروق الشمس تجوب فيها شوارع وطرقات المدينة شرقًا وغربًا.. جنوبًا وشمالًا.

ثم ذهابها مع أبيها قبل غروب الشمس إلى مطعم أسماك ليتناولا وجبة الغداء في الهواء الطلق..

مطعم رائع على هيئة مركب ويقبع على شاطئ ساحل الخليج العربي الساحر ليلًا، فأعمدة الإنارة تبدو كعقد من اللؤلؤ ترتديه تلك المدينة الجميلة..

يمتلكه رجل فلسطيني ظريف يسمَّى (أبو طاهر)، توطدت العلاقات بينه وبين عادل، وصارا صديقين حميمين.

كانت قد نشأت علاقة صداقة بينه وبين عادل من أول زيارةٍ لهم للمطعم فعندما علم أبو طاهر بأنه مصري

وخصوصًا من الإسكندرية طار سعادةً، وترك كل ما وراءه من أشغال، وجلس بجانبه يتذكران حي بحري ومراكب الصيد وحلقة الأسماك.. حيث إنه تم تهجيره من فلسطين بعد حرب 48 مع والده صغيرًا، وسكن بالإسكندرية بحي بحري..

عمل ببيع الأسماك وهو فتًى يافع لم يتجاوز الخامسة عشرة، فكان يحمل سلة صغيرة يضع بها الجمبري وبلح البحر والريتسا ويطوف بها على المقاهي والخمارات..

تذكرا معالم الإسكندرية الساحرة.

قلعة قايتباي التي بناها السلطان قايتباي على البحر مباشرةً على أنقاض منارة الإسكندرية القديمة إحدى عجائب الدنيا السبع لحماية الإسكندرية منذ مئات السنين..

تلك القلعة العتيقة التي كانت مرتعًا وملعبًا ومرحَ كل أطفال حي بحري يمارسون بها كل ألعاب الصغار .

ويتسلقونها حين تتملكهم روح المغامرة.

يركضون على الصخور الصلدة العنيدة القابع خلفها تصارع الأمواج.

يتفادى الصغار خطاطيف الأمواج العاتية لئلا تخطف أحدًا منهم فيسقط بالبحر فريسة للأمواج العاتية..

دائمًا تتشابه ذكريات أبناء الحي الواحد.

ومن ذلك اليوم وهما صديقان يتبادلان الخبرات ويدور بينهما النقاش دائمًا عند كل زيارة.

وذات يوم من الأيام بعدما تعالت أصوات الملاعق على أطباق المطعم ثم سكنت، وبعد الاستمتاع بوجبة أسماك طازجة لذيذة جلس عادل وابنته يتأملان..

ينظران لمنظر البحر الرائع عند الغروب..

تشرئب أعناقهم ناحية البحر يتابعان حركة سير المراكب الشراعية في سباق رائع.

يجلسان في انسجام مع صوت الأمواج المختلف والمتجدد والمتغير والذي يوحي للنفوس ببراح ومدى وأمل. وفجأةً أفسد عليهما هذا الانسجام سماع صوت مزعج لدرجة لا تحتمل وهو صوت طلق ناري يتداخل معه ضحكات مزعجة.

نظر عادل على يساره تجاه تلك الأصوات المزعجة فوجد رجلًا بَجْبَاجًا قصيرًا تتعالى ضحكاته ممسكًا بسلاح، وحوله عدة رجال يحيطون به ويتلفتون يمينًا ويسارًا حرصًا على سلامته. يبدو من هيئته أنه شخصية هامة وأنهم حراسة شخصية، ونظر عادل بتجهم لما يفعل، فوجده يفرغ

سلاحه الآلي الروسي من فارغ الرصاص وقد أشار بالسلاح تجاه وجه عادل والجلوس.

نظر له عادل بفزع واستهجان ثم قال له:

_ لا يتم تفريغ السلاح الآلي الروسي إلا لأعلى أو لأسفل.

_ ماذا تقول؟

_ قلت ما سمعتَ قد يؤدي تفريغك للسلاح تجاه اليمين أو اليسار إلى إنهاء حياة إنسان؛ فقد تخرج رصاصة من السلاح أثناء عملية التفريغ والتنظيف فتنهي حياتي أو حياة ابنتي.

أشار للحراس أن يقفوا مكانهم ولا يتحركوا بعدما هموا بالتدخل.

_ يظهر من لهجتك أنك مصري. هل أنت ضابط جيش؟

_ لا لكني كنت حكيمدار ثلاثة أطقم رشاشات في الجيش أثناء تجنيدي.

_ آها ملحوظتك صحيحة جدًّا وأشكرك على تذكيري بتلك الملحوظة الهامة فلقد تعلمت ذلك بالجامعة. أنت تعمل بالإمارات؟

_ نعم أنا دكتور في الجامعة.

_ هذه ابنتك؟

_ نعم ابنتي.

_ ماشاء الله تشبه الأجانب.

_ نعم لأن أمها فرنسية.

_ أهلًا بك بالإمارات.

_ أشكرك.

انصرف الرجل الذي يحمل السلاح وهو يمشي برزانة ووقار وثقة وخلفه الحراس.

هرول أبو طاهر تجاه عادل وهو يرتعد خوفًا وقال له أتدري مع من كنت تتكلم؟

_ مع من؟

_ إنه شخصية هامة جدًّا وذو نفوذ.

_ لكن الذي يعنيني حدوث طامة وفاجعة منه كادت أن تنهي حياتي.

_ وقد يكون عتابك له سببًا في إنهاء حياتك أيضًا فقد يطلق عليك الرصاص ولن يسمع بك أحد.

_ ماذا تقول؟

ـ إن كل المسؤولين هنا يخافون الله وعلى أحسن حال إلا هذا فإنه شارب للخمر معربد. ومن سوء حظي أنه لا يحب السهر إلا في مطعمي هذا الذي بناه لي والده.

ـ والده؟

ـ نعم والده يعطي بغير حساب.

ـ مر من هنا وكنت أوقد الحطب وأشوي الأسماك هنا أمام بيتي وأبيع فقال لي خذ ذلك المال ابدأ به مشروع مطعم سياحي يكون واجهة مشرفة على ذلك الشاطئ فعملت ذلك المطعم العائم.

ـ نحن في دولة بها قانون.

ـ نعم. صحيح وكل ما بها يخضع للقانون. لكن كفاك الله شر مسؤول يحتسي الخمر كل ليلة ويتملكه شيطانه ليلًا.

عاد عادل وابنته لبيته وقد علاهما الصمت الرهيب.

ذهبت جانيت في صباح اليوم التالي لتلك الحادثة للمدرسة وهي تتمنى أن تجد صديقة تساعدها على الاندماج في ذلك المجتمع الجديد عليها وتستطيع أن تفهم منها مايدور حولها وكيف تسير الأمور..

وبعد انتهاء اليوم الدراسي اقتربت من زميلتها التي تجلس في الكرسي المجاور لها وحاولت أن تتكلم معها.

- هل ممكن أتعرف بك؟
- نعم. كيفك؟
- لم استمع جيداً وربما لم أفهم.
- كيف حالك؟
- بخير الحمد لله.
- يظهر من ملامحك أنك لست خليجية.
- نعم أنا فرنسية من أصل مصري.
- تشرفت بمعرفتك.
- وأنا أيضًا.
- ما اسمك؟
- جانيت. وأنتِ؟
- هنوف
- نعم؟
- هنوف هذا اسمي.
- تشرفنا.
- الشرف لي.

عادت جانيت للمنزل سعيدةً بما أنجزت اليوم من اكتساب صديقة جديدة قد تساعدها في الاندماج مع المجتمع الخليجي المختلف.. وتخرجها من الوحدة التي تعيش فيها منذ الولادة وحتى الآن.

obeikandl.com

لم يكن يهون على جانيت ساعات الدراسة كل يوم إلا الحديث مع صديقتها المهذبة بين ساعات الدراسة ولا يوجد أسرع من مرور الأيام حيث إنها تنثال يومًا بعد يوم وتتساقط من الأعمار كورق الشجر. وفي نهاية العام الدراسي طلبت هنوف من جانيت أن تزورها في بيتها حتى تتواصل معها في العطلة المدرسية الصيفية؛ فقد حكت لوالدتها عن شخصيتها الجذابة وعن ذوقها الرفيع.

رحبت جانيت بذلك واقترحت بعد تلك الزيارة الخروج في جولة استكشافية لمعالم المدينة وياحبذا مع وجبة أسماك بمطعم أبو طاهر حيث يقع على الشاطئ بمركب خشبي قابع في الماء حيث يشعرك بالمغامرة.

ولكن لم توافق جانيت مباشرة حتى تستشير والدها في الأمر فهو كل شيء في حياتها..

وبعد موافقة والدها الذي سعد كثيرًا بسماع ذلك الخبر وتلك الدعوة..

وكأنها دعوة من المجتمع الخليجي لتلك البنت التي ولدت ونمت بفرنسا متشبعة بالثقافة الغربية و الآن يتملكها الإحساس بالوحدة..

(لا تذبحنِ بسكينٍ بارد ...)

وبعد عصر يوم جمعة حيث العطلة الأسبوعية بالمدينة ويوم مستحب للزيارت العائلية والأسرية والصدقات.

ذهبت جانيت لمنزل صديقتها القريب من منزلها جلست مع هنوف في الصالة تتحدثان بغير ضغوط الدراسة وبغير الملابس المدرسية الرسمية بكل حب ومرح وسعادة. تكلمتا في كل شيء.. فقد كان لدى هنوف شغف لتعرف كل شيء عن طفولة جانيت في فرنسا..

لعبها.

دراستها.

طريقة لبسها.

عادتهم.

تقاليدهم.

جلستا تتذكران لحظات الطفولة.

ففي معرفة طبيعة حياة مختلفة عن التي عشتها متعة لأنها تزيد من خبراتك وتوسع المدارك لديك.

ورحبت والدة هنوف بها كثيرًا وشاركت في الحديث معهما بكل حنان بعدما قدمت لجانيت واجب الضيافة.

وبعد جلسة لا يشوبها أي شيء يعكر صفو الحكي الجميل سلمت هنوف على والدتها وتبعتها جانيت.

حيث اطمأن قلبها لها كثيرًا.

خرجتا من المنزل في جولة بالسيارة تشرح هنوف لجانيت معالم المدينة العربية، حتى وصلتا لمطعم أبو طاهر. سعدت جانيت به كثيرًا لموقعه المتميز بالمدينة ..

جلستا على مائدة بجانب النافذة حيث منظر البحر الرائع والسفن تمر من بعيد ببطء كسلحفاة هكذا يظهر للرائي حيث بعد المسافة.

طلبتا وجبة فاكهة البحر الذيذة.

ومع الكلام كانت تتعالى ضحكات جانيت.

وفي لحظات مشؤومة دخل الرجل البَجْبَاج يرتدي عقالًا ووقف على باب المطعم وخلفه عصبة من الحراسات الخاصة عابسة الوجوه.

يترنح من السكر.

تملق الناس يمينًا ويسارًا كأنه يبحث عن فريسة..

ولم يشده إلا جانيت فقد كانت تسحر كل من رآها..

تهجم عليها، وأمسكها من يدها يجذبها نحوه. لم تتمالك هنوف نفسها من الصدمة فأغمي عليها لعلمها بمكانة ذلك الرجل البشع في مجتمعها، وشعورها بالعجز عن أن تساعد صديقتها في الخلاص.

صرخت جانيت صرخات أنثى تستغيث بمروءة رجل به شيء من النخوة والرجولة لينقذها من ذلك المخمور البشع الذي تفوح منه رائحة الخمرة ممزوجة بأفخم العطور الفرنسية؟!

سقطت على الأرض بعدما خانها حذاؤها فجذبها من يدها من خلف ظهره يجرجرها وهو ينظر للأمام بعين شاخصة نحو المتعة وإرضاء النفس المتجبرة.

خطت دموعها خطًّا على أرضية المطعم..

تحول كل من بالمطعم لتماثيل من الشمع..

تبًّا للخمرة. كأنها نزعت من قلبه كل معاني الإنسانية وجعلته آلة صماء عمياء تدمر وجدان فتاة وحيدة..

هل خوفًا من منصبه أم خوفًا من الكلاب التي تحيط به تعينه على ظلمه وتردع كل من يقول لا.

رحم الله أمل دنقل عندما قال المجد لمن قال لا في وجه

مـن قالـوا نعـم.

سالت دموع أبو طاهر يرتعد خوفًا.

وتوجـه تجـاه ذلـك العربيـد السـكير الـذي تخـلى عـن كل معـاني الإنسـانية.

يعبر بين الناس كأنه يمر بين تماثيل شمع..

مشـى ثـم هـرول ثـم ركـض وتعلـق بيـده ليستسـمحه أن يتركهـا.

التفـت الرجـل البجبـاج وعينـاه تبظـان شرارًا، ووجهـه كلـه عبـوس وتجهـم ينظـر لمـن يحـاول إيقافـه باسـتهجان وتعجـب مـن تهـوره وكأنـه ينظـر لرجـل حـاول أن ينتحـر بتلـك المحاولـة الانتحاريـة لإيقـاف المـارد والتـي قـد تنتهـي بالفتك بـه برصاصة مـن مسدسـه الذهبـي أو مـن حراسـه الفجرة لقتـل الشـهامة فيه.

وجـده صاحـب المطعـم أبـو طاهـر الرجـل الطيـب حبيـب كل النـاس المهـذب الـذي طالمـا جلـس بمطعمـه وطالمـا أوصـاه والـده عليـه.

وقـف كلـوح الثلـج ونظـر لـه بعـين تلمـع ولكنهـا لا تـرى شـيئًا مـن شـدة الثمـل والسـكر ثـم اسـتمر في السـير.

اقترب أبو طاهر من أذنه وخاطبه وهو يهرول بجانبه:

_ أستسمح سيادتك أن تتركها وشأنها.

_ أريدها.

_ وحياة الوالد الكريم لتتركها.

_ ابعد وإلا قتلتك.

_ بالله عليك اتركها.

وفجأة اصطدم الطاغية المتجبر بعمود من أعمدة المطعم، كأن ذلك العمود تحول لرجل شجاع ذي نخوة فاقت ما بتماثيل الشمع وكلاب الحراسة..

دارت الدنيا به.

يرى الناس من حوله كخطوط من الألوان تطول وتقصر ثم تصير دوار فدوائر..

عاد إليه شيء من عقله، ولم يعد إليه شيء من إنسانيته..

تركها بعدما انتبه لضجيج الصداع الذي برأسه حيث يدق بمعول صرخاتها وتوسلات أبو طاهر.

خرج من باب المطعم راكبًا سيارته الفارهة.

سار..

وخلفه حراسه بسيارتهم السوداء كقلوبهم..

خرجت جانيت بعده ببرهة من الزمن بدون حذاء، وقد وصلت من شدة الصراخ وهول الصدمة لحالة من

obeikandl.com

الإغلاق لا تسمع ما يقال حولها من رواد المطعم يطمئنون على سلامتها من ذلك الحادث المؤلم.

ولا تستجيب لحوار أبو طاهر معها حيث يتكلم معها بكلمات كثيرة من الاعتذارات لكنها ترى شفتيه تتحركان ولا تسمع ما يقول. تنظر تجاهه كدمية كُتب عليها السكون..

خرجت من المطعم تركض بلا حذاء وقد أجهشت بالبكاء حيث حرقة القهر الذي تعرضت له..

تركض بالطريق تجاه البيت وقد أسدل الليل سدوله..

وواأسفاه من لحظات مؤلمة لم تنتهِ..

وذئاب لا تأكل اللحم لكنها تفتك بالشخصية وبالوجدان فتحطمهما في لحظات..

ما أصعب اللحظات المؤلمة عندما تكون ليلًا ولها توابع تزيدها مرارةً.

الطريق مظلم خالٍ من المارة إلا سيارة بها شابان لم يتجاوزا السابعة عشرة يديران مؤشر المذياع على محطة الأغاني في السيارة بصوت مرتفع وتقف على إحدى جانبي الطريق يحتسيان البيرة وينظران إليها بعين الرغبة في كل محرم فقد كانت أجمل امرأة رأياها في حياتهما تتطاير الغواية من أعينهما فلم يتركاها تمر في سلام ولكن طارداها بالسيارة.

ظلت تركض وتركض..

حافية القدمين..

يطاردانها كذئبين.

أخرج أحدهما يده من السيارة، وأمسك بطرف فستانها، وجذبه فصرخت وقد انكشف جسدها أمامهما..

ظل يجذبها بقوة وهي تقاومه..

كذئب يكاد يلتهم فريسته..

صرخت بأعلى صوتها..

ظهر على الشابين الاضطراب حينما سمعا صراخها ففرَّا كجرذين

فأكملت الركض حافية القدمين حتى وصلت بيتها.

لم تكن تتخيل أن جمالها المفرط سيكون نقمة عليها لتلك الدرجة..

دخلت حجرتها وقد أشفقت عليها حجرتها تحيطها بحوائطها والباب.

ترى نفسها عارية..

افترشت الأرض. نظرت تجاه السقف في صمت رهيب وبداخل رأسها صخب وضجيج..

obeikandl.com

عيناها صارتا لا تريان صور الرجال بل ذئابًا.

نفرت كل جوارحها وأحشائها منهم.

إنعقدت بداخلها عقدة كبلورة زجاجية حادة الأطراف كلما تقلبت جرحت وجدانها.

يا لها من صرخات لحبال صوتية مهلهلة منقطعة الحيل تقبع بأعماق نفسها التي تصدعت..

ما أقسى الدنيا عندما تدير ظهرها فجأةً..

رفع ستار الغيب وكشف عن مرض كان متربصًا بوالدها.

شعر عادل بقدوم جانيت فخرج من غرفته يسير ببطء ممسكًا ببطنه كأنها تكاد تسقط منه ويكاد جنباه أن ينشقا من شدة الألم، فقد شعر اليوم بتعب شديد عما اعتاد عليه في الأيام الأخيرة من ألم بالبطن كسيوف حادة مدببة الطرف تنغز بها من الداخل.

يستخدم له المسكنات غالبًا.

ذهب لغرفتها وطرق الباب فلم ترد. انحشر صوتها بداخلها وانقطعت الحيلة بأحبالها الصوتية حتى أصبحت حبالًا باليةً مرتخية..

كتمت أنفاسها بيدها حتى توهم أنها نائمة فهي في حالة

لا تستطيع أن تتكلم فيها.

ولكن عادل كان يعلم أنها لم تنم؛ فهي لم تدخل الغرفة إلا منذ دقائق، فطرق مرة أخرى فردت عليه بصوت خافت أنها مرهقة وستخلد إلى النوم فأشفق عليها وطلب منها أن تنام في التو لتستريح.

ولكن أحس عادل من نبرة صوتها المتحشرجة وكلماتها المتلعثمة أنها ليست سعيدة من تلك الزيارة لصديقتها.

كم كان يتمنى عادل أن تعود سعيدة.

إنه يريدها طبيعية. مندمجةً فقد كانت أمنية عادل أن يجد ابنته مفكرة وأديبة عربية كبيرة تخدم الوطن العربي وتخدم العالم بأجمعه ٍ ويسأل الله أن يراها كذلك .

.

(نظر في المرآة...)

مـرت السـنوات وعـادل في تقـدم علمـي ومـادي واجتماعـي ولكـن حالتـه الصحيـة تتدهـور كثـيرًا وذات يـومٍ شـعر بتعـب شـديد.

مغص شديد كأن سكاكين تقطع جانبه..

نظر في المرآة..

وجـد وجهـه شـاحبًا وقـد حلقـت عينـاه وانتـشر أسـفلها السـواد الشـديد..

لم يعـرف عـادل نفسـه مـن شـدة الهـزال الـذي وصـل إليـه في أيـام قليلـة، فخلـد إلى النـوم. وفي صبـاح اليـوم التـالي، لم يسـتيقظ في ميعـاده المعتـاد مـع أذان الفجـر عـلى صـوت جانيـت العـذب وهـي توقظـه، فتلـك أول مـرة توقظـه فيهـا؛ فـكل يـوم تسـتيقظ هـي عـلى صوتـه الـذي اعتـادت الاسـتيقاظ عليـه.

تلـك أول مـرة مـن يـوم أن جـاء الي الخليـج لا يسـتيقظ فيهـا عـلى صـوت أذان الفجـر.

لم يمنعـه مـن الاسـتيقاظ في الميعـاد إلا التعـب الشـديد الـذي حـل بجسـده وظهـور أعراضـه عليـه في أيـام قليلـة حتـى فقـد

نسبة كبيرة من جسده في ذلك المرض الذي لم يدرِ ما هو؟

لاحظت جانيت على والدها المرض حيث يبدو وجهه شاحبًا وكذلك هزل جسده. طلبت منه أن ينام وإنها ستتصل بالجامعة لتخبرهم بمرضه.

ثم اتصلت بطبيب استشاري أمراض باطنة حصلت على اسمه من دليل التليفونات.

جاء الطبيب وكشف عليه فقال له تماسك أيها العالم الكبير ستكون بصحة جيدة إن شاء الله.

خرج الطبيب من غرفته وسأل جانيت عن والدتها فتغير وجهها وتألمت ثم قالت هي في فرنسا.

ثم قال لها: إن والدك مريض بالفشل الكلوي فكل الأعراض التي تبدو عليه تشير إلى ذلك.

ففقده لوزنه بتلك السرعة

وترهل الصدر

والصفار في اللعاب بكميات كبيرة.

وستؤكد ذلك التحاليل وسيتضح منها نوعية المرض ومدى تطوره في جسمه النحيل هذا.

شعرت جانيت بهم وغم وحزن شديد فهي ليس لها في الدنيا غيره.

ذهبت بوالدها الى الجامعة حتى يكشف عليه طبيب الباطنة في مستشفى الجامعة فكشف عليه وعمل له التحاليل اللازمة.

وبعد ظهور نتيجة التحاليل أثبتت أنه يعانى من فشل كلوي وأنه في مرحلة ما قبل الغيبوبة، حيث إن الحالة ستتطور بعد أشهر معدودة وسيدخل في مرحلة التشنجات والغيبوبة.

بكت عين جانيت على والدها وقد أصبح طريح الفراش.

كتبت الجامعة له إجازة طويلة حتى يتعافى مع سريان المرتب في تلك الفترة.

ذهبت جانيت للطبيب وحدها في اليوم التالي تتفهم منه كيف سيكون العلاج؟ ورحب الطبيب بذلك فهو لم يرَ بنتًا في جمالها في الخليج بأكمله فقد زار معظم مدن الخليج وليس لديه مانع في أن يعطيها من وقته ولو الساعات بعد الساعات فتلك عيون لم ير مثلها قط في حياته، وكان لذلك أثر كبير على الطبيب في أن يعرض جميع خدماته عليها ولا يدخر حلًا من الحلول التي ممكن أن تساعد أباها على الشفاء حتى وإن كان ذلك الحل ممنوعًا ولكن بعد أن تجيب على سؤاله أولًا.

_ ممكن أعرف اسمك؟

_جانيت اسمي جانيت.

_وأنا مجدي طبيب من مصر. تشرفت بمعرفتك.

_الشرف لي يا دكتور.

_ آسف لأن معرفتي بكِ في تلك الظروف الصعبة ولا أستطيع أن أقول لك فرصة سعيدة لكن قد تكون بداية الانفراج لتلك الضيقة على يدي وسأقدم لكِ كل ما أستطيع فعله.

_ أرجو ذلك ولن تقصر.

ذلك الحوار القصير على الرغم من قصره إلا أنه خلق ثقة ليس لها حدود في سريرة الطبيب جعلته يتكلم معها بكل ارتياح وثقة.

أخبرها أن الكلى في مرحلة حرجة حيث إنه تليف أي فسد وهو العضو المسؤول عن السموم والسوائل.

وإنه سيخضع لكورس علاجي مكثف وسيغسل كلى أسبوعيًّا والشافي هو الله.

لكنها سألته عن حل يجعله يعود كما كان فأخبرها أن هذا الحل الأخير صعب وهو زراعة كلى حيث إن ذلك يتطلب متبرعًا بكلى وذلك نادر الوجود وكذلك إن وجد فسيتكلف أموالًا طائلة أما الحل شبه المستحيل فهو شراء

كلى وتجـارة الأعضـاء ممنوعـة.

جلسـت جانيـت تفكـر وتفكـر في مصيبـة العمـر التـي حلت في أعـز النـاس.

في كل حياتها..

في والدها الحبيب.

فقد أوشكت الكليتان على التوقف نهائيًّا عن العمل.

أوشكت حياته على الانتهاء.

أوشـكت الدنيـا أن تديـر لهـا ظهرهـا وتتركهـا وحيـدة. فكـرت في ذلـك الحـل الـذي ذكـره الطبيـب.

هل ممكن أن أتبرع بكلى؟

يصعب فعل ذلك لكنه ممكن.

كم عمرك؟

- عشرون عامًا.

آهـا إذن لا يجـوز قانونيًّـا أن تتبرعـي أنـت بكليـة مـن كليتيك لأنـه لابـد أن يكـون عمـرك فـوق الـ 21 وهـو في أمـسِّ الحاجـة لتلـك الـكلى اليـوم قبـل غـد.

شراء كلى؟!

حدثت جانيت نفسها.

فلو كان هو الحل الوحيد فلابد منه. لابد من إنقاذ أبي المريض المسكين بأي ثمن.

نظر الطبيب باستغراب.

ماذا تقولين؟

نعم الذي أعرفه أن من أجل إنقاذ مريض يفعل أي شيء.

وأنا مستعدة بدفع أي مبلغ حتى أحصل على تلك الكلى ومستعدة لكل طلباتك وسأعطيك أجرًا مضاعفًا للعملية.

أرجوك أيها الطبيب؛ فأنا وحيدة هنا وهذا أبي كل حياتي.

نظر الطبيب لعينيها اللتين تفيضان بالاحتياج لمساعدة رجل شهم؛ فضعف الأنثى سر قوتها، ولا تحتاج الكثير من الوقت لكسب ثقة رجل، فمجرد إظهارها للاحتياج لخدمات رجُلٍ تكسب الكثير من الثقة بمجرد النظر لعينيه بتوسل خفي.

فكر لبعض الوقت وهو ينظر في عينيها ثم قال لها:

_ اتركيني أفكر في الأمر وسأخبرك غدًا برأيي.

وفي اليوم التالي وقفت جانيت أمام المرآة تتنزين بعدما ارتدت ملابس تبدو فيها أكبر من سنها، وقد بدت كملكة

متوجة على عرش فرنسا أيام الملكية وقد تعجبت من حسنها المرآة وبكت على بكائها وعلى الدموع التي تنهمر من عينيها كحبات لؤلؤ.

وذهبت للطبيب تستكمل معه البحث عن حل وما إن رآها إلا وتبسم وجهه.

فوجهها الجميل يجلب السعادة لكل من رآه.

تكلما كثيرًا في موضوع عملية زرع الكلى.

فكان رده أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك هنا في الإمارات ولكن إذا أردتِ فعليكِ أن تذهبي به إلى مولدافيا حيث هناك نساء يتبرعن بكلاهن من الفقر، وسأعطيكِ رقم سمسار لتجارة الأعضاء البشرية هناك فهو يأتي هنا من حين لآخر ليعرض خدماته لكن لا يتعامل معه إلا الأجانب المتواجدون هنا .

ولكن إياك أن يعلم أحد أنني تحدثت معك في هذا الأمر.

_ أعدك بأن الأمر سر بيننا وكيف أبوح بسر؟

كيف أضرك وأنت تمد يدك لتساعدني؟

الموت أهون من ذلك يا دكتور.

_أنا ممكن أفعل أي شيء أستطيع فعله من أجلك.

إني أشعر كأني أعرفك من وقت بعيد.

وقولي لي مجدي فقط.

لم تتردد جانيت في أن تقول له:

_ يا مجدي قل جانيت.

مجاملة له على ما يقول.

انجذب مجدي لها بشكل غريب. أحس أنها فتاة أحلامه ودنياه الغائبة التي يبحث عنها. هي حلم السنين الذي ظل يحلم به. فتاة أحلامه. ظل يطاردها يتصل بها ويحاول الاقتراب منها..

حاجة جانيت لمجدي جعلتها تبادله عبارات الإعجاب حتى لا يتركها ويترك والدها المريض في تلك الحالة بلا مشورة أو نصيحة، وقد درس السنوات في كلية الطب وتخصَّصَ في الباطنة ويعلم الكثير عن ذلك المرض اللعين..

استغلت سلاح المرأة معه؛ فهي لا تشعر أن بداخلها قلبًا ينبض لأي رجل، لكن تستطيع أن تلاطفه وتشعره بأنها بها شيء من الانجذاب إليه إلى حد ما لتصل لما تريد..

كلما قال لها كلمة ردت عليه بمثلها.

أو صمتت الصمت الرهيب.

الصمت الذي هو كشبكة الصياد.

وقع مجدي كطائر السمان في عشقها من أول ملاطفة منها، وأصبح رهن إشارتها، وملازمًا لوالدها يطيبه كظله حتى يختلس النظرات لها.

مرت الأيام وحالة عادل تسوء وتزداد سوءًا. الوجه شاحب والعينان غائرتان وقلب جانيت يتقطع إشفاقًا على والدها.

وفي صباح يوم جديد، ذهبت لتوقظه كالعادة، فلم يُفق. أصابها الفزع من ذلك وظنته مات. صرخت في البيت عسى أن تنجدها الخادمات. جاءت الخادمات وحملنه للسيارة، وساقت به جانيت إلى مستشفى، واتصلت بالطبيب مجدي.

حضر سريعًا، وأخبرها أن والدها وصل لمرحلة الغيبوبة، وهي مرحلة متأخرة جدًّا في المرض ولا يوجد أمامها إلا زرع كلية، وهذا الأمر يتطلب متبرعًا، وإن لم يوجد فلابد من السفر فورًا إلى جورجيا لإجراء العملية هناك بعد شراء كلى عن طريق سمسار في مولدافيا.

لم تتوان جانيت في الأمر وسافرت بوالدها إلى جورجيا واتصلت بالسمسار الروسي وأخبرته بالأمر وجاء لها بامرأة من مولدافيا تعاني الفقر المضجع، ولا تجد ما تنفق به على أبنائها بعد أن مات زوجها عامل البناء.

ستتبرع على الأوراق في جورجيا وستبيع كليتها بعشرة آلاف دولار وسيحصل هو كعمولة وسمسرة على ثلاثة آلاف دولار.

وجميع المصروفات من تذكرة طيارة وحجز في مستشفى على جانيت.

وافقت على الفور، وجاء الرجل ومعه المرأة وتمت العملية وقد حصل الطبيب الذي قام بها في جورجيا على سبعة آلاف دولار.

عادت جانيت بوالدها إلى الإمارات وبدأت تتحسن صحته مع ضعف عام يصاحبه وهزال..

ونظرًا لظروفه الصحية، فقد قررت جامعة الإمارات إحالته للمعاش، وحصوله على المعاش الذي يقارب مرتبه الذي كان يحصل عليه، وصُرفت له مكافأة كبيرة.

جلس في البيت يفكر في تلك الحياة العجيبة التي تدور بسرعة رهيبة. شريط الحياة مر أمام عينيه منذ أن كان طفلًا حتى أصبح دكتور جامعة في الإمارات حتى أصابه المرض. وها هو يقترب من النهاية. ظل يفكر في ذلك العمر القصير الذي تتهاوى منه الأيام فينفرط كعقد اللؤلؤ المنفرطة حباته..

يفكر في مصيره..

يفكر في أخطائه في الحياة.

يفكر في الأيام والليالي التي قضاها كي يثبت ذاته ويبني نفسه ويصبح عالمًا لعلم النفس كبيرًا.

يفكر في سرعة مرور عجلة الحياة.

عجلة الحياة تدور

وكأن الأرض تغور

الشعر يغزوه الشيب سريعًا كالنار تنتشر في الهشيم

ومرض يجور

أعالج الأيام ولكنها تسرقني

تخطفني

تذهب بي إلى المجهول..

كم كنت على الحياة غيورًا

زارني طيف المرض فسرت للموت مجبورًا

هكذا كان يتمتم عادل بتلك الكلمات المعبرة عن حالته التي وصل إليها ثم جلس يفكر في ابنته جانيت التي فعلت المستحيل من أجله. كيف سافرت به لجورجيا وكيف

obeikandl.com

اشترت له الكلى. إنها فعلت شيئًا يعجز لسانه عن وصفه. بدأ يفكر بموته وشعر بقدوم أجله لكن لم يؤلمه شيء قدر إحساسه بأن جانيت ستكون وحيدة. خاف غيابه بالموت على ابنته الوحيدة وأن ذلك الغياب سيكون كسهم مسموم بصدر ابنته الوحيدة فجلس يتمتم بكلمات.

المسموم.. سهم الغياب

مخيف عبث الغياب..

سهامه لا تخطئ القلب..

لولا تماسكه لتفتت

كلما أصابني سهم منها تشككت

متوجس خيفة من ذلك السهم الذي يخفيه القدر وسط سهام الجَعبة

ذلك السهم المسموم

سهم قد يحرق قلبها قهرًا

قد ينزع روحها وحشةً وحنينًا

من ينزعه منها؟

من يداويها إذا أصابها ذلك السهم المخبأ تحت ستر القدر

أهي ذكريات الحنين؟

obeikandl.com

أخاف موتها باختراقه روحي

وعدتني الحياة بتلقي كل تلك السهام

ولكني أخاف عليها من سهم الغياب المسموم!

ارتجل عادل تلك الكلمات معبرًا عما يشعر به تجاه ابنته وخوفه عليها من الأيام، إذا هو رحل إلى الحياة الآخرة تاركها لمصيرها ووحدتها من بعده. يخشى الوحشة والوحدة أن تفتك بها.

مرت الأيام وقد تحسنت حالته وصحته واطمأنت عليه جانيت.

obeikandl.com

(امرأة بلا قلب ...)

لم يعد لمجدي أي احتياج في حياتها ومن ثم ولا لاتصالاته المتكررة.

كانت تعلم أنه منجذب إليها لكن..

هل اضطرتها الظروف للعب بمشاعر الناس..

تسايره عبارات الإعجاب؟!

تغازله؟

تستغل أسلحتها الفتاكة

وسهام عيونها التي لا تخطئ؟!

ثم بعد ذلك؟

للأسف جرحت إنسانًا راقيًا مهذبًا في مشاعره

تجاهلته

كلما اتصل بها تجاهلت مكالمته

وأخيرًا صارحته بأن تلك العلاقة لاتجوز ولابد أن يلزم مكانه.

جلس مجدي يفكر في ما سمع منها تائهًا من الصدمة!

obeikandl.com

يتلفظ بكلمات تعبر عن تلك التجربة مع جانيت ولا يفهم ماحدث فيقول:

حب مجنون

تخاطبت العيون

بالحب المجنون

فصرخ القلب..

وكلما تعاقب ليلها ونهاري

تشرب وجدانها وجوارحها بي

أشرقت شمس حبي في سمائها

فتفتحت له وتزينت..

مس ضياؤه أوتار قلبها فتشرب بي غرامًا

واستبشرت بالغيث المنغمر منه عشقًا

قالت أنت قمري وتهاوت النجوم

نور قلبك يلوح في سمائي من خلف الغيوم

ولدت في برج القوس فيوم مولدك يا له من يوم

أنت قوس قزح في ليلة شاتية من أقداري

أنت سر إشراقي وإصباحي

obeikandl.com

تعطرت نسمات هواها بعطري

كنت أحلق فوق السحاب فأرفرف بقلبي

وفي ليلة حزينة وحيث أسدل أستاره السكون

قالت: حبنا كلما انسكب ازداد عطرًا وفاض وملأ الكون

وحكمت أقدارنا علينا بفراق وإلا فنحن

المذنبون الضائعون

الضالون

المعربدون

المنتهكون لحرمات الحياة الملعونون

و لابد لشمس حبك من غروب

كيف لها أن تغيب وقد تعامدت؟

فهل لشمس تفيض عشقًا وغرامًا من زوال؟

فهل لي أن أقدمها أو أؤخرها؟

فلست نبيًّا ولست يوشع بن نون

فأمطرت العيون

واحمرت الجفون

بكينا وبكت الطيور والفراشات وبكى الكون

obeikandl.com

وافترقنا ولازال الحب المجنون

يطاردني ...

لم تلتفت جانيت لمجدي

عاملت الحياة بأسلوب جديد

اللعب بالمشاعر وبالعواطف جائز في قانون جانيت

استخدمت هذا القانون كثيرًا بعد ذلك وكأنه سلاحها الفتاك في الحياة

حاول قلبها أن يؤنبها

لكنه تحول صخرًا.

لم تتجاوز العشرين والغربة سوتها كما يسوَّى العصفور على المقلاة.

استقرت الأمور بعض الشيء. جلس عادل في البيت راضيًا بوضعه الجديد. يقرأ الجرائد صباحًا، ويذهب للنادي لكي يضيع بعض الوقت ويعود ينتظر جانيت ليحكي معها.

كلية الإعلام تناسبها جيدًا.

وتليق بها. وقد قضت بها سنوات.

وكلها تطلع لمستقبل أفضل بعدما استقر وضع والدها

obeikandl.com

الصحـي والمـادي.

وفي يـوم مـن أيـام الدراسـة بالجامعـة يحـاول أحـد الدارسـين أن يتقـرب منهـا بعدمـا رأى وجههـا المشرق. لم تمـل عليـه أفكاره إلا فكـرة واحـدة لكـي يعـبر عـن إعجابـه بتلـك الفتـاة التـي لم يشـاهد فتـاة في مثـل جمالهـا مـن قبـل.

نظر إليها ونظرت إليه.

جمال جانيت الساحر خطف قلبه..

كاد أن ينسى اسمه بسبب ابتسامتها الساحرة.

فأخـرج ورقـة مـن كشـكوله الجديـد وقطـف زهـرة مـن حديقـة الجامعـة ووضـع الـوردة في مظـروف وكتـب في الورقـة:

هديـة.

اقبِلي تلك الزهرة

فهي منزوعة الأشواكِ

تركتها في قلبي تذكره بهواكِ

اقبِلي تلك المشاعر التي تكاد تفنيني

تحرقني تكويني

تدفعني للجنون

..

قبليها فهي ليست زهرة فحسب

بل زهرة عمري

زهرة فؤادي

أنقذِي إنسانًا من الموت عشقًا

اقبليها تحييني

لا تذبحيني

أوصي كل عاشق بالاتعاظ بحالي

بمأساتي

فكم كنت أود أن أكون كالجبل

لكن هواها جعلني فتاتًا

نظر إليها وترك المظروف بجوارها على الكرسي الذي تجلس عليه؟

مدت يدها وأخذته لتعرف ماذا كتب لها ذلك الشاب الوسيم ذو العيون الضاحكة والوجه المبتسم.

نظرت له وكأنها وجدت فيه فتى أحلامها الذى طالما راودها فى الأحلام بجاذبيته .

obeikandl.com

خاطبته بينها وبين نفسها ...

يا ليتك جئت قبل فوات الأوان ...

قلبي تهشم ...

لم يعد يشعر بعد ...

أثخنته الجراح ...

لم يعد ينبض أو ...

يتـــــــــألم

مت مرات عديدة ...

إن ما حدث لها من الرجال جعلها أنثى تحيا بلا رجال؟

أم ذنب الطبيب العاشق يطاردها؟

هل قلبها تحول صخرًا معاقبة على ما فعلته من اللعب بالمشاعر!

عادت جانيت لمنزلها وجلست في غرفتها مستغربة من تلك الحالة التي تصيبها.

ظلت تفكر وتفكر في أمر مشاعرها التي لا تتحرك.

أخرجت ورقة وكتبت فيها كلمات تعبر عن تلك الحالة التي تعيشها

obeikandi.com

ووضعتها في مظروف وكتبت فيه:

قلبي تحول صخرًا

قلبي تحول صخرًا

أنا قلبي تحول صخرًا

صخرًا مات فيه الإحساس

صخرًا لا يشعر بقلوب الناس

حاولت كثيرًا أن أحب وللأسف

قلبي تحول صخرًا

قلبي تحول صخرًا

تظن أنني سأحبك؟!

كيف وإنني لم أعرف الحب يومًا؟

يا ليت قلبي يحترق بك حبًّا

يا ليته يتمزق بك عشقًا

إنني أراك أميرًا متوجًا على عرش الحب

ولكني لا أستطيع أن أحب

وسأخبرك بقصتي يا أملي في الحب

obeikandl.com

لقد كنت أتحدى كل قلب عنيد

كنت أمتلكه وأضحك وأتركه وأعود وحيدًا

كنت إذا شعرت بقلبٍ يحب أجرحه

كنت أستعلي على الحب وأنكره

أنا كنت قلبًا ما عنده قلب

قلبًا استعلى وجرح وقتل

كان قلب إنسان ولـمَّا جنى وظلم انتهى
وعوقب وحُرم من الحب
وتحول صخرًا
وتحول صخرًا
يا ليتني أشعر بالحب
أنا قلبي تحول صخرًا

ثم تركت ذلك المظروف الذي وضعت فيه تلك الرسالة على نفس الكرسي الذي كانت تجلس عليه في حديقة الجامعة وقت أن رأت طيف ذلك الشاب يلوح لها من بعيد فهرول الشاب ثم امسك به الشاب وكله أمل لم يكن يعلم أنها نهاية البداية وبداية النهاية ..

obeikandl.com

(لبيك اللهم لبيك ...)

يومًا بعد يوم يشعر عادل أنه غريب في تلك الدنيا..

يستيقظ وقتَ السَّحَر يسبح ويستغفر الله ويقول:

تبت إلى الله

ورجعت إلى الله

وندمت

على ما فعلت

وعزمت عزمًا أكيدًا على أن لا أعود إلى المعاصي

أو شيء يُغضب الله

ثم يجلس يسبِّح ويحمد الله ويهلل في غرفته حتى يؤذن للفجر فيصلي ويجلس بعد الصلاة يذكر الله.

ولم يجد عادل وقتًا مناسبًا للحج أفضل من الحج في ذلك العام من ذلك الوقت وتلك الظروف التي يعيش فيها؛ فقد تقاعد عن العمل نظرًا لظروفه الصحية ورغم نجاح العملية إلا أنه يشعر بشيء داخله يقول له: أوشكت النهاية أن تسدل الستار على دنياه واقترب الرحيل.

obeikandl.com

تعلق عادل بمنظر الكعبة المشرفة الذي يراه أمام عينيه وهو جالس في مصلَّاه.

وكأن شيئًا ما بداخله يصرخ:

لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك

لا شريك لك لبيك

انتظر عادل جانيت حتى عادت من الجامعة وأخبرها بأنه قرر أن يحج هذا العام وأنها لها الحرية في أن تختار بين الذهاب معه والبقاء في الإمارات.

لم يكن يتوقع خيارًا ثالثًا من جانيت؛ فلقد جعل نفسه لها أبًا وأمًّا وأخًا وابنًا.

لكنها فاجأته بخيار لم يكن يتوقعه. قالت: لن أستطيع أن أجلس وحدي. سأشعر بوحشة ولن أطيقها. سأسافر لوالدتي لزيارتها.

احمرَّ وجه عادل، واحمرت أذناه، واندهش لما يسمع؛ فقد مرت سنوات طويلة على فراقه آليتا، وقد تحجج بجميع الحجج لجانيت عندما كانت تفتح باب الزيارة لها.

لم يكن متصورًا أن جانيت لا زالت تشتاق لها وتريد رؤيتها على الرغم من أن آليتا لم تشتق في يوم من تلك الأيام الكثيرة التي مرت إليها.

حاول عادل أن يقنعها بأن تذهب للحج معه لكنها رفضت واختارت رحلة أوروبا وزيارة والدتها وزيارة باريس فكم اشتاقت إليها كثيرًا وإلى شارع الشانزيليزيه.

لم يهون عليه إلا أنه يعلم تمامَ العلم أن آليتا لن تتمسك بها كثيرًا وأن الحياة في أوروبا صاخبة وموحشة..

كما أنه لابد لها من رؤية والدتها حتى لا يكون في قلبها حاجة أو وجع أو حرمان.

نظر عادل نظرة إشفاق وحنان إلى جانيت وقال:

_ لن أمنعك يا بنيتي عن أن تزوري والدتك ولكن كنت أتمنى أن تحجي إلى الله معي.

_ سأفعل سأفعل.. ولكن في عام آخر.

تمر الأيام، وقد عشق عادل قيام الليل وهدوء السحر وذكر الله والسبيح فيه والحمد والاستغفار بالأسحار

حيث تتجلى الأنوار..

ويطلع على بعض الأسرار..

يظل مع الناس يومه صائمًا حتى إذا جاء الليل اعتزل الناس وقام ليله يتعبد.

لا يحدِّث أحدًا ولا يخاطب..

يناجي ربه ويذوق حلاوة الإيمان والطاعة والقرب والأنس.

فقد فاز بدعوة أمه له فقد كان ابنًا بارًّا..

يبكي وينـدم على ذنوبه التي اقترفها طوال حياته وعلى ما أسرف في السنوات الماضية طمعًا في جنة الرحمن وفارًّا من عذاب النار..

جلس يتأمل ويفكر

ويقول:

عجلة الحياة تدور

سِنون تتساقط

كورق تناثر من الشجر

بتشرين

وليل ونهار

كلمح البصر

تيبست الأحلام

بالشرايين

وعجلة الحياة تدور

تدور بنا وندور

صماء

بكماء

بأوجاعنا تغور

تدهسنا فتغير ملامحنا وتدور

تطحننا ببطء

فتلال الأحزان بحور

تفرقنا

ببيوت وقبور

تمر بالرقاب

تتخطى

ليس رحمة ولكن عقابًا

رضيع يبكي

يضحك

obeikandl.com

يتألم

يحلم

ينتظر الرحيل

يستشرف شعاع النور

ظل على تلك الحالة أيامًا حتى جاءت ليلة السفر. أخرج الحقيبة الكبيرة ووضع فيها ملابس الإحرام إزارًا ورداءين أبيضين طاهرين جديدين ووضع كتاب الله فوقهما..

قلَّم أظافره واغتسل وتوضأ.

طرقت جانيت عليه الباب ودخلت وجدته يجهز الحقيبة ويبكي فبكت واحتضنته وودعته..

فلقد كان ميعاد طائرتها بعد طائرته بيومين. بكى عادل؛ فهي أول مرة يسافر لمكان بدون جانيت؛ فقد سافرا المهرجان دبي للتسوق وكانت معه واشترى لها كل ما طلبت ورجعا بحقائب محملة بملابس وأحذية وساعات لأشهر الماركات..

ذهبت معه بالسيارة وظل يوصيها ويوصيها أن تحافظ على نفسها في تلك الزيارة لفرنسا حتى أشفقت عليه وأعطاها مبلغًا ماليًّا كبيرًا جدًّا حتى تسعد وتتمتع في رحلتها وتصرف كما تشاء وتعود سالمةً وحذرها من أن تترك بيت والدتها أبدًا طوال تلك الرحلة إلا مع والدتها حتى تركب

الطائـرة وتعـود لـه سـالمة.

وفي المطار لبس ملابس الإحرام وصعد بها سلم الطائرة..

استلقى بظهره على مقعده بالطائرة وتملكه الشوق لبيت الله الحرام.

لحظات من الذكريات تسلي وقت السفر..

تذكر لحظة أن ذهب لمسجد أبي العباس المرسي أول مرة مع والده ليصلي صلاة الجمعة وترك يد أبيه وركض سريعًا وسريعًا وانطلق في ساحة المسجد الكبيرة كأنه يطير فوق السحاب وينطلق في رحاب ذلك المسجد الطاهر الشاهد على أحداث الدهر.

ودخله أجداده حتى الجد السابع يصلون ويذكرون الله.

يتذكر درس الشيخ الأزهري الذي كان يحضره بعد صلاة العصر بالمسجد، وكيف كان يذكِّره بالآخرة قبل أن يغرق في بحر الدنيا العميق ويسحبه التيار الشديد.. فسبحان المنجي!

نزل من الطائرة وهو يرتدي ملابس الإحرام التي تخلو من الخيط وتشبه الكفن ففي تلك الرحلة المقدسة يذهب الرجل بملابس تشبه الكفن.

نزل وهو يردد: لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك

لا شريك لك لبيك

وما إن نزل على أرض مكة الطاهرة المباركة التي حرمها الله يوم خلق السموات والأرض فلا يجوز فيها قتل طير أو صيد حيوان أو إزالة شجر.

بلد طاهر تشرَّف بميلاد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وقال الدعاء الذي حفظه مع مناسك الحج التي ذاكرها في الشهر الأخير قبل السفر وقال:

اللهم البلد بلدك والبيت بيتك

جئت أطلب رحمتك

وأؤم طاعتك متبعًا لأمرك

أسألك مسألة المضطر إليك

المشفق من عذابك أن تستقبلني بعفوك

وأن تتجاوز عني برحمتك وأن تدخلني جنتك

اللهم صلِّ على خير الورى سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحج تذكرة بالرحيل..

obeikandl.com

ولا تميز السيد من الخادم

ولا الصعلوك من الملوك

ولا المتبتل للعبادة أيام دهره ولم يعص الله والمذنب مرتكب الكبائر الذي جاء تائبًا مستغفرًا بالأسحار يرجو للجنة سبيلًا..

إنه يشبه يوم لقاء جل جلاله الجليل..

النية لله.. اللهم نويت حجًّا وعمرة معًا مقرنًا ومعي دليل..

نظر لبيت الله الحرام وهو ينظر للحمام حول البيت يحوم..

لا رفث لا فسوق ولا جدال لا لوم..

أنوار البيت الحرام أزالت عن القلب الأغيار والغيوم..

اللهم ربي بكت عيني على سنوات الذنوب والمعاصي وما أسرفت على نفسي شر يوم..

يوم بلا طاعة لله هو شر يوم..

استقبل الكعبة وكان الحجر الأسود على يمينه وأشار له بيده وقال بسم الله والله أكبر.

اللهـم آتنـا في الدنيـا حسـنة وفي الآخـرة حسـنة وقنـا عـذاب النـار.

obeikandl.com

(تفعلها الأم أحياناً ...)

طاف عادل حول الكعبة طواف القدوم..

كانت في نفس تلك اللحظة جانيت تنزل على سلم الطائرة في باريس.

ذهبت جانيت إلى العنوان الذي أعطاها إياه والدها.

طرقت الباب ففتحت لها امرأة فرنسية خمسينية تبدو بنت الثلاثين، ملامحها تشبه ملامح جانيت.

تماسكت جانيت، وأحكمت مشاعر غريبة تتحرك بداخلها..

وجدت نفسها..

وجدت روحها.

وبعفوية وبراءة واندهاش قالت جانيت وهي تضع يدها على صدرها وقد رسمت ضحكة حنونة على شفتيها وضحكت عيناها:

_ أنا جانيت.

_ جانيت؟ من جانيت؟

obeikandl.com

شعرت جانيت بصدمة كبيرة؛ فلقد تعرفت على أمها من أول وهلة ولم تتعرف عليها أمها حتى بعد أن قالت لها اسمها.

_ ألستِ آليتا؟

_ نعم أنا.

_ وأنا ابنتك جانيت.

اندهشت آليتا، واحتضنت جانيت بوجه عليه ذهول خالٍ من الابتسامة.

تمالكت جانيت جماح مشاعرها المدفونة تجاه أمها لـمَّا لمحت على وجه والدتها اندهاشًا جافًّا من الفرح..

جلست جانيت جلسة الضيف..

جلسة تضم فيها أقدامها ولا تتحرك إلا حركات محسوبة.

جلست وقد أكسبها حضن أمها إحساسًا بالغربة الشديدة والجفاء؛ فقد كان حضنًا جافًّا خاليًا من مشاعر الأمومة..

فالمشاعر تنتقل عبر الأثير كما يُقال ولها لغة خفية عجيبة.

فمن كرهك شعرت منه بذلك بدون أن ينطق بكلمة

واحـدة.

ومن أحبك شعرت منه بذلك بدون أن يتكلم..

مـن تفِـضْ مشـاعره بالشـوق لـك تغمـرْه السـعادة بوجـودك معـه، فبمجـرد أن يـراك تحيـط بـه هالـة مـن الانتشـاء تمـس مشـاعرك وتفجـر مـا بداخلـك مـن حنـين..

لكن للأسف هذا لم يحدث..

داخـل أعـماق كل شـخص مفـارق لأمـه صغـيرًا كهـوف مـن الحرمـان والوحـدة والحـزن وكـسر الخاطر..

كهوف مظلمة مخيفة لكنها متناساة في العقل الباطن.

يـا ليتـه كان حضنًـا صادقًـا، إذًا لنسـف كل تلـك الكهـوف نسـفًا.

حاولـت جانيـت أن تكـذِّب مـا تشـعر بـه مـن جفـاء وتـبرر مـا بـدر مـن والدتهـا بـأن سـببه المفاجـأة، وأن المتهـم الأول في مأسـاة البعـد عنهـا هـو الخـلاف الـذي جعـل والدهـا يُبعدهـا عنهـا وقـد آن الأوان لكـي تنهـل مـن حنانهـا ولا غـرو أن المنـاخ الغـربي يسـتهويها ويناسـب شـخصيتها جـدًّا ووجـدت فيـه نفسـها.

فهي تشعر أنها فرنسية تنطق بلسان عربي..

اشـتاقت لذكرياتهـا في باريـس وفي ذلـك البيـت. إنـه البيـت

الـذي تربـت فيـه صغـيرة. تعرفـه برغـم اختـلاف ملامحـه كثـيرًا؛ فالزمـان يغـير كل شيء.

ولا غرابة وقد غير مشاعر الأمومة!

دخلـت جانيـت في حالـة مـن التوهـة والـصراع الداخـلي بـين مـا تشـعر بـه مـن جفـاء ومـا كانـت متوقعتـه مـن والدتهـا..

صراع بـين المثاليـة التـي كانـت تنتظرهـا وبـين الواقعيـة التـي تشـعر بهـا وتلمسـها وتحسـها وتفـر منهـا..

كان التـماس العـذر لوالدتهـا لحاجـة في نفسـها رغـم وضـوح الموقـف؛ فلـم يكـن لقلـة خبرتهـا في الحيـاة فلقـد علمتهـا الحيـاة الكثـير ولكنهـا وجـدت نفسـها في المنـاخ الغـربي وشـعرت بأنهـا سـمكة عـادت للبحـر.

تجلـس جانيـت عـلى مقعدهـا وتـدور بهـا الدنيـا دورانًـا عنيفًا وتحدث نفسـها.

كل الدنيا تتغير عليَّ إلا حنان أبي وعطفه عليَّ.

هو من لي في الدنيا.

كم أفتقدك كثيرًا أبي!

متى ستنتهي مدة رحلة الحج حتى تعود لبيتنا وأراك..

كل تلـك خواطـر وكلـمات تحـدِّث بهـا جانيـت نفسـها ريثـما

تحضر لها أمها كوبًا من العصير المثلج كمشاعر آليتا تمامًا!

جلست أمامها والدتها وبجوارها زوجُها الثلاثيني الذي تزوجها بعد أن تركت الرجل الذي ظلت معه عشر سنوات بعد أن تركت عادل. إنه يصغرها بعشر سنوات أو أكثر وتعشقه بجنون..

جلس بجوارها يتطلع لجانيت وجمالها الذي طغى وفاق الحدود، فبادرتها آليتا بسؤال حتى تستدرجها لحوار تعلِّمها منه صعوبة تواجدها معها في بيت به رجل يتطلع إليها بهذا الشكل المخيف، وإذا ضعف أمامها في لحظة ضيعها حيث يصعب أن تتحمل ذلك فقالت:

_ متى وصلتِ باريس؟

_ منذ قليل.

_ وكيف تركك عادل تسافرين وحدك؟

_ لقد ذهب للحج واخترت أنا أن أزورك.

_ زيارتك أسعدتني، وأي فندق اخترتِ للنزول فيه؟

كلما نظرت آليتا في وجه زوجها الثلاثيني وجدته ينظر لجانيت نظرات تعرفها جيدًا منه مما جعلها تسأل هذا السؤال الذي يخبرها بأنه لا مكان لكِ هنا؟!

لم تتوانَ جانيت في أن تخبرها بأنها ستتجول أولا قبل أن

تختار الفندق الذي ستقضي فيه تلك الإجازة.

نزلت جانيت والدموع في عينيها مستخدمة المصعد الكهربي العتيق الذي تعرفه جيدًا، وعندما نزلت وجدت شابًّا يقف أمامها على باب المصعد لا يتحرك، فوقفت تنتظر أن يفاديها ويصعد لكنه وقف أمامها كالمسمار لا يتحرك.

تبكي.

تدور الدنيا بها.

نظر إليها وابتسم.

لم تلاحظ جانيت تلك الابتسامة لكن لاحظت منعه لها من السير فنظرت في وجه وجدت عليه علامات الاندهاش.

_ جانيت؟

لم ترد.

_ هل أنت جانيت؟

نظرت له باستغراب، وأجابته بحركةِ رأسها وهي تبكي، ثم نظرت بعين الاستغراب. كيف عرف؟!

_أنا ديلون.

_ من ديلون؟

تتفحص ملامح وجهه الفرنسي، ثم تقول بصوت

obeikandl.com

خافت: آهـا ديلـون كيفـك؟ لقـد تغـيرت ملامحـك بعـض الـشيء بعدمـا صرت شـابًّا.

_ كذلك أنت صرت جميلة جدًّا. لماذا تبكين؟

_ لا عليك.

_هـل تسـمحين لي أن نحتـسي القهـوة سـويًّا فنتذكـر شـيئًا مـن الذكريـات؟

_ ابتسمت وقالت لكنك كنت في طريقك لشقتك.

_ لا لا لقد نسيت الحافظة ورجعت لذلك.

مـر الوقـت سريعًـا عـلى المقهـى الفرنـسي الشـهير وقـد أوشـكت الشـمس عـلى الغـروب وهمـا يتذكـران الذكريـات الجميلـة واللعـب سـويًّا صغـارًا.. تبتسـم وتمسـح دموعهـا.

_أين تعيشين الآن؟ ألازلتِ في الخليج؟

_ نعم لازلت أعيش في الإمارات.

_ بأية كلية تدرسين؟

_ كلية الإعلام. وأنت؟

_ أنا أدرس في كلية الطب.

_ آهـا ممتـاز جـدًّا ودراسـة برغـم صعوبتهـا لكنهـا جديـرة بـأن تفخـر بهـا.

_ أنا أفخر بشئ أهم.

_ ما هو؟

_ أنـا عضـو في منظمـة علميـة متطـورة تفـوق هـذا العـالم بأبحـاث متطـورة.

_ أية منظمة؟

_ منظمـة مـا علميـة لهـا أبحـاث متطـورة. اليـس لـكِ اهتمامـات أخـرى غـير الدراسـة؟

_ أحب أن أقرأ في كتب وقصص وروايات الخيال العلمي.

_ آها أصبحنا نعيش ما هو أغرب من الخيال العلمي.

_ صدقـت.. العـالم أصبـح غريبًـا .. مخيفًـا بـما يـدور فيـه. هـل لديـك وقـت لتذهـب معـي لأحجـز غرفـة في فندق؟

_ بالطبع.

_ أشكرك.

ذهب بها ديلون بسيارته لفندق يُطل على نهر السين في مكان هادئ مراعاة للحالة النفسية السيئة التي تعيشها.

طلبت جانيت من ديلون أن ينتظرها بالاستقبال حتى تضع الحقائب بغرفتها وتنزل لتسهر معه وتتسامر. شعرت بأنها في حاجة لتحكي له ما بها من وحدة وضيق.

طلبت جانيت العشاء، وجلسا يتناولان العشاء على أنغام البيانو وصوت المطرب الفرنسي الذي تجاوز السبعين عامًا.

_ لم أكن أتصور ذلك الاستقبال الباهت من أمي.

_ أنا أتصور كل شيء يا جانيت. إنني أومن بأن المصلحة فقط هي ما تحرك الأفراد والمجتمعات وأن أي شيء سواء أكان خيرًا أو شرًّا أو أخلاقًا أو مشاعر، هي أمور نسبية تتغير بتغير المصلحة والعلاقات.

_ ياه! لم أكن أتخيل أن تلك الحياة التي نعيش بها قد تكون بهذا الشكل المخيف الذي تصفه وتؤمن به!

_ يا جانيت أنا لا أومن إلا بهادية بحتة. قرأتُ كتبًا كثيرة جدًّا في شتى المجالات. لم أجد أصدق في نظري من كتاب

القـوة والمـادة للفيلسـوف العبقـري بوخنـر .

_ وماذا يقول فيه؟

_ يقـول: ليـس في الوجـود أصـول أدبيـة أو أصـول اعتقاديـة مقـررة. إنـما الوجـدان الأدبي شيء مبتكـر مثـل الوجـدان الدينـي ابتكـره قـادة الأديـان.

_ كلامـك ليـس جديـدًا عـليَّ؛ فقـد كان جـدي لأمـي يعتقـد مـا تعتقـد ويفخـر بذلـك لكننـي مسـلمة كأبي.

وبعـد سـاعة مـن الـكلام الـذي يعالـج اضطرابهـا ويسـكن آلامهـا شـعرت فجـأة بانقبـاض في صدرهـا وضيـق، ودقائـق واسـتأذنت منـه لكـي تتصـل تليفونيًّـا لتطمئـن عـلى والدهـا عـن طريـق رقـم شركـة السـياحة الـذي يعطيـه مسـؤول العلاقـات العامـة بالشركـة لأقـارب الحجـاج لكـي يتسـنى لهـم الاطمئنـان عليهـم، فهـي خدمـة مـن ضمـن خدمـات الحـج الفاخـر.

اتصلـت جانيـت وطلبـت أن تكلـم الدكتـور الجامعـي عـادل محسن .

لم تصدق جانيت ما تسمع.

سقطت سماعة الهاتف من يدها.

مات عادل على جبل عرفات.

مات والدها.

مات من كان يحتويها ويسقيها الحنان سقيًا.

زادت جانيت فوق تيهتها تيهة.

زادت جانيت فوق ضيعتها ضيعة!

أغمي على جانيت، وسقطت على الأرض. التف حولها روادُ الفندق مما دفع ديلون للذهاب ليرى ما يحدث. وجدها جانيت والناس تحاول أن تسقيها الماء لكنها في الإغماء.

حملها لغرفتها واتصل بالطبيب.

جاء الطبيب ووصف لها بعض الأدوية التي تعالج الإغماء حتى أفاقت وجلس بجانبها ديلون وأخبرته بموت والدها.

_ ديلون. أنا بلا أبي سأنتحر.

سأقتل نفسي بقطع شرايني. لن أعيش بدونه. هو كل حياتي.

تماسك ديلون. كان له تأثير كبير على جانيت حتى لا تنهار وتضيع للأبد.

قال لها: أولًا اتصلي بشركة السياحة وأخبريهم أنك لا تريدين دفنه في السعودية وتريدين أن يشحن على طائرةٍ إلى الإمارات حتى تقبّليه قبلة الوداع وتمري بيدك على شعره.

لقد مات ولم يرَكِ..

لابد أن تدفنيه بجوارك في الإمارات ولا يكون مدفونًا في بلد آخر.

اتصلت جانيت، وطلبت منهم ذلك، وأنها المسؤولة عن كل المصاريف ومستعدة لتحويل أي مال يطلبونه لذلك، فأخبروها أن هذا الأمر سيستغرق ثلاثة أيام حتى تتم كافة الإجراءات، ووافقت جانيت.

نامت جانيت في الفندق ليلةً لا تعرف كيف نامتها ولا كيف استيقظت.

وعندما استيقظت وجدت بجانبها على الوسادة ورقة صغيرة وبها رقم هاتف، وكتب أسفل منه ديلون.

جلست جانيت في الغرفة دون أن تفتح النافذة ليدخل ضوء النهار.

اتصلت بخدمات الفندق، وطلبت خمورًا وبيرة، وظلت تشرب للثمالة.

لم ترحم نفسها وكأنها تريد أن تلحق بوالدها. مرت ساعات وجاء الليل، وهي على تلك الحالة. وجاء ديلون ليطمئن عليها وجلس معها في مطعم الفندق يريدها أن تأكل شيئًا وهي في حالة يُرثى لها.

_ لا بد أن تخرجي من تلك الحالة جانيت.

_ لا أستطيع أن أعيش بدون أبي.

_ كل إنسان لا بد أن يمر بحياته بفقد عزيز.

_ لكنه ليس عزيزًا وحسب. إنه كل حياتي. إنه أنا.

_ جانيت.. ألا تتذكرين أني قلت لكِ إني عضو بمنظمة؟

_ نعم.

_ لم أخبرك عنها.

_ صحيح.

_ هي منظمة علمية سرية تقوم بأبحاث متطورة على الجسد البشري.

_ ماذا تقصد.. أريد توضيحًا لما أسمع.

_ بشكل مختصر حتى لا أدخلك في متاهات التخصص. نأتي بخلية جسدية بالغة حتى تكون متعددة الصبغات وبها 46 كروموسومًا ولها الصفات الوراثية الكاملة لشخص معين، ونضع نواتها في بويضة أنثى منزوعة النواة، ثم نصعق تلك البويضة المحملة بنواة تلك الخلية الجسدية بالكهرباء حتى ينشط الانقسام بداخلها وبعد أن تبدأ تلك البويضة في الانقسام توضع في رحم أنثى. تتكاثر الخلية وتسير في

مسار تكوين الجنين، ويولد له نفس مواصفات صاحب الخلية الجسدية التي وضعت في الرحم فسيكون نسخة طبق الأصل من والدك. فالاستنساخ البشري هو تكاثر ولكنه تكاثر بدون تزاوج.

_ أنا لا أفهم كثيرًا مما تحدثني عنه، أو لست في حالة تسمح لي بفهم هذا الآن.

_ ما يهمك في الأمر أنك تستطيعين أن تدخلي معنا تلك المنظمة السرية العلمية برتبةٍ متبرعة ومضحية ممن تقام عليهم الأبحاث وسوف نقوم كمنظمة بعمل عملية استنساخ بشري لوالدك بأخذ خليةٍ من خلايا جسده ووضعها في بويضة لكِ منزوعة النواة ببعض الخطوات المعملية المعقدة، وبعوامل حفازة تتكاثر تلك البويضة وتكون جنينًا تحملينه في بطنك ويخرج صورة طبق الأصل من والدك.

على الرغم من حالة السكر والإعياء التي فيها جانيت إلا أنها أفاقت من سكرتها، وصرخت في وجهه: ماذا تقول؟

_ هل تؤمنين بالعلم؟

_ نعم إلى أبعد حدود ولكن...

_ فذلك علم، ونتيجته أنه سيكون معك جنينًا تربينه صورة طبق الأصل من والدك يسلي لكِ الأيام وهو هو

أبـوكِ.

_ بمجـرد أن تنضمـي لتلـك المنظمـة العلمية السريـة، وتحلفي يمـين وقسـم المنظمـة ونأخـذ عليـك العهـد، سـتدخلين التاريـخ كعضـو في أعظـم منظمـة علميـة في العـالم بعدمـا أزكيـكِ كعضو قديـم لأن ذلـك مـن شروط الانضـمام. سـنبدأ في إجـراءات العمليـة بعـد اقتناعـك ولابـد أن تقـرري سريعًـا قبـل مـوت خلايـا والـدك الجسـدية. لم يدفعنـي لأن أحدثـك في ذلـك إلا إحسـاسي أنـك بـلا والـدك ضائعـة وهـذا الجنـين سـيكون صـورة طبـق الأصـل منـه.

ترى جانيت الرجل رجلين

والموائد تدور

وترى ديلون بشكل مضحك

فتبتسم ثم تضحك ضحكًا هستيريًّا ثم تبكي

وتجيبه:

_ إلى الآن لا أتصـور الحيـاة بـدون أبي وكيـف سـأعيش في الإمـارات وحـدي بدونـه؟

_ لماذا لا تعيشين في فرنسا؟

_عشـت طفولتـي بـس بفرنسـا ووالـدتي لا تريـدني معهـا في فرنسـا ولقـد عشـت سـنوات عديـدة في الإمـارات ولي فيهـا بيت

ومال وسوف يصرف لي معاش شهري كبير هناك عن أبي ولي مميزات كثيرة سأحصل عليها هناك تجعلني أعيش عيشة كريمة لكن وحيدة بائسة.

_ سيتجدد لكِ الأمل بتلك التجربة.

تحمست جانيت للفكرة، لكن كيف ستحمل بذلك الجنين وتعيش في الإمارات وذلك المجتمع الشرقي الذي لن يقبل هذا الأمر؟

لقد تربت فيه منذ أن كانت لاتزال بضفيرتين وتعلم طباعهم وثقافتهم المحافظة.

فكان جواب ديلون أن المنظمة ستوفر لكِ الورق اللازم فهي على دراية كاملة بكل الثقافات وولدك سيحمل اسم أبٍ مسلمٍ وستحصلين على ورق طلاق من المحكمة وستدخلين التاريخ من أوسع أبوابه وستحصلين على وسام المنظمة الذهبي وهو أعلى وسام لديها لما ستقومين به من خدمة جليلة للبشرية.

_ نحن لنا سنوات نبحث عن أنثى لها ثقافتك ولها إحساسك العالي بشخص فقدته مثلك وأعتقد أنك ستكونين من أعظم نساء العالم بتلك التضحية الجليلة للبشرية.

_ إني أشعر بأنني إنسانة غير عادية وسأقوم بشيء غير عادي منذ أن كنت صغيرة؛ فكل شيء فيَّ كان مختلفًا عن كل الناس التي تعيش حولي. ما المطلوب مني أن أفعله؟

_ عندما تعودين إلى الإمارات نريدك أن تأخذي شريحة من جلد والدك وسأخبرك كيف، وسأعطيكِ علبة صغيرة بها مواد حافظة لحياة خلايا الجلد، وسنحدد لك ميعادًا لعمل العملية في مقر المنظمة السري في ألمانيا.

_ اتفقنا.

_مرحبا بكِ في دنيا التطور العلمي والمجد.

مرت الأيام وكل ما تم الترتيب له قد حدث..

وتمت تلك العملية المجنونة، وعادت جانيت محملة بذلك الجنين الذي سيخرج من رحمها شبيهًا بأبيها.

أخبرت جانيت كل من يقابلها بأنها تزوجت في تلك الرحلة برجل باكستاني يعيش بألمانيا وكان في زيارة لفرنسا مثلها.

ومرت تسعة الأشهر، وجاء موعد الولادة الموعود، واتصل بها ديلون وأخبرها بأن المنظمة تنتظرها لتلد هناك ويحتفلوا بذلك التقدم العلمي المذهل، وتحصل على الوسام الذهبي للمنظمة، ومعه مبلغ مليون دولار أمريكي.

وأخبرت جانيت مربيتها باميلا بأنها ستسافر إلى ألمانيا لزوجها، ولكي تلد هناك وسوف تعود بعد الولادة.

حدث ما كانت تريد وشاهدت ذلك المولود الذي هو نسخة طبق الأصل من أبيها وأسمته نادر..

obeikandl.com

(نادر)

ومرت الأيام والمولود يكبر..

وكلما نظرت جانيت إليه شاهدت مجدها الذي كتبته.

وشاهدت والدها فيه..

كلما مر يوم ذبلت جراحها، وتعافت من وحدتها.

أصبح كل شيء في حياتها.

نادر يتعلم المشي مستندًا إلى الحائط.

تتطاير الفرحة من عيني جانيت الزرقاوين وهي تنظر تجاه ذلك الرضيع.

تخاطب نفسها في سعادة.

ما أشبهك بأبي!

يبتسم لها نادر من بعيد وهو يوزع خطى مبعثرة تتابعها جانيت بنظرات الحرص والإشفاق..

جثت جانيت على ركبتيها معترضة طريقه وهي باسطة ذراعيها كجناحَيْ يمامة.

يبتسم لها..

oberkandl.com

يهمهم بكلمات لا تفهمها.

تخاطبه جانيت قائلة:

قل أمي. بل قل بنيتي.. لا أدري بما يجب أن تدعوني به حبيبي .

وتمر الأيام، ويكبر ذلك الطفل..

يدخل المدرسة، وقد أحضرت له جانيت كل متعلقات الدراسة من حقيبة وكراسات وأقلام..

وفرت جانيت له كل شيء..

لا يمنعه عن التميز مانع.

جعلته يعيش في جو دراسي سليم.

ولكن تأتي الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ.

لم تكن تتوقع جانيت أن يعود نادر يومًا وهو يحمل خطابًا بحقيبته التي أثقلت ظهره ولا يكاد يستقيم ظهره الذي قارب على التحدب منها لشدة هزاله وضعفه، كُتبَ فيه استدعاء ولي الأمر لأمرٍ هام.

تذهب جانيت للمدرسة في اليوم التالي وتتوجه لمديرة المدرسة.

- صباح الخير.

صباح النور

وصلني هذا الخطاب مع ابني نادر.

نعم. كنا في انتظار حضورك. إن ابنك نادر مختلف عن باقي التلاميذ.

كيف؟

لا يتكلم مع أحد ومنزوٍ بأحد أركان الفصل. ضعيف التحصيل والاستيعاب. لم يتحدث مع أحد طوال فترة الدراسة السابقة. لا يستطيع أن يجيب على مدرسته إلا بعد مجهود شاق منها.

هل هو متخوف من شيء؟

لا نعلم ما به ولكننا حاولنا معالجة تلك المشكلة ولم نتمكن، بل نلاحظ أن حالته النفسية غير مستقرة.

هل أستطيع أن أساعده على الاندماج مع أقرانه وسرعة الاستيعاب؟

بالطبع الحل في يدك. أنت أقرب الناس له وتستطيعين أن تفهمي ما به.

انتصبت جانيت قائمة وهي تتصبب عرقًا، ومدت يدها للمديرة من فوق المكتب المبعثر الأوراق.

أشكركم على التنبيه.

لا شكر على واجب. نأمل أن يكون هو وجميع الطلاب في أحسن حال.

عانت جانيت معه معظم الوقت في محاولة إدماجه مع أقرانه من التلاميذ وفي مساعدته لمذاكرة دروسه وتمر الأيام سريعًا كمتسابق ألعاب قوى يركض بسباق المائة متر.

ويصبح شابًّا صورة طبق الأصل من أبيها وقد أصبحت في العقد الرابع..

لكنه لم يكن شابًّا عاديًّا بل ظلت تعذبه الأمراض ويعذبه نفور الناس منه.

فملامحه منذ أن كان ابن الثلاث سنوات كأنها ملامح رجل تخطَّى الأربعين!!

وكان خشن الملمس وضعيف البنية وهزيلًا.

وظل وحيدًا أيضًا لا يخالطه أحد وينفر منه الناس.

الصغار ينفرون منه خوفًا..

والكبار ينفرون منه اشمئزازًا.

كانت جانيت تلاحظ ذلك ولم تكن تتوقعه، فكانت تقضي جميع أوقاتها معه مشفقةً عليه حيث السمة الغالبة

عليه الضعف والهزال.

وزاد كآبتَها تدهورُ صحته. أصابه المرض اللعين السرطان بعدما حدثت طفرة في جين (بي 53) فبعد كون هذا الجين من مثبطات الأورام يصبح شيئًا لا ينتفع به ولا قيمة له ولا تأثير.

وتتكون الخلايا السرطانية المتوحشة التي كانت خلايا طبيعية فانقلبت رأسًا على عقب على ذلك الجسد وتحولت لخلايا غريبة على الجسد نفسه تنهش فيه نهشًا..

يومًا بعد يوم تشعر جانيت بتأنيب الضمير على ما جنت في حق نفسها، وفي حق ذلك الشاب الضائع، وفي حق الإنسانية جمعاء.

وفي يوم من الأيام، وبعد أن خلدت للنوم، حلمت حلمًا أفزعها. حلم وكأنه جاء بشريط حياتها بعد تلك الفعلة الشنيعة وختم بشيء مفزع.

رأت نفسها

ركبت الفتاة قطار الحياة

يسير بسرعة جنونية إلى النهاية بلا يومٍ جميل

سمعت أصواتًا مخيفة تأتي من ناحية الزمان

أصوات الوحشة والوحدة

صوت النهاية التي تلوح من بعيد

صوت اليأس الذي يقترب

ألقت بمشاعرها من القطار وهو يسير

وجدت نفسها وحيدة في مدينة مسكونة بالأشباح

بأشباه الرجال

إلى أين المفر؟

أصابها الفزع من الوحدة

مرت على قلعة مفتوحة الأبواب تداعت أركانها

أكل عليها الزمان وشرب

قالت: أحتمي بتلك القلعة حتى تسكن تلك الأصوات التي تهز وجداني

دخلت القلعة هربًا فزعًا

جلست بجوار سور متهالك يكاد يسقط

وما لبثت أن جلست إلا ووجدت صندوقًا قديمًا عتيقًا

يفوح منه عبق التاريخ

يبدو قيمًا

فتحته بحثًا عن يوم جميل.. بحثًا عن إحساس

obeikandl.com

خطف ضوءٌ يخرج منه عينيها

ووجدت بداخله صورًا لأشخاص تتكلم كأنها أشباح

لم تُخفها تلك الصور بقدر خوفها من أصوات الألم

أمسكت بصورة سلمت عليها بنظرةٍ وابتسامة

خاطبتها الصورة بصوتٍ حنون

تعجبت

ياله من صوت!

صوت تسكن معه أصواتُ الزمان

كلما خاطبتها الصورة شعرت بأنها أميرة متوجة محاطة ببطانتها وذويها

ما سر تلك الصورة؟

إن لها تأثيرَ السحر

تعالجُني

فيها دوائي

تساءلت

ومن صاحب تلك الصورة؟

obeikandi.com

من ذلك الرجل الحنون؟
جذبني
هو فرحي
هو حياتي
هو أنا حيث أتبغدد وأتصابى وأبدو بنت السابعة عشرة
حينما أكلمه أشعر بأن أبي قد عاد من العالم الآخر
ظلت تخاطبه ويخاطبها
تنهل من بحور حنانه وإحساسه
وتعطيه شوقًا وحنينًا
وفجأة
سقطت الصورة من يدها على الأرض فتلاشت
وضاعت الصورة وضاع الحلم
قامت مفزوعة خائفة من ذلك الكابوس المفزع الذي ضاع فيه الحلم..
فزعت واستيقظت من ذلك الحلم ولم تحكِهِ لأحد.

obeikandl.com

(شجرة بلا جذور...)

شعر نادر بأنه مختلف عن أقرانه في كل شيء. يحمل جنسية ألمانيا وملامح رجل كبير، ممزوجة بملامح كائن فضائي غريب، ويبدو ابن الخمسين على الرغم من حداثة سنه.

لم يشاهد أباه مطلقًا، وكان كلما سألها عنه تخبره بأنها لا تعلم عنه شيئًا!

وفي يوم من الأيام، دخل نادر غرفة والدته يبحث عن أوراق له، فسقط الصندوق الصغير الذي تحتفظ به والدته منذ أن كانت صغيرة بكل ذكرياتها، وانكسر موضع القفل، فانفتح الصندوق.

نظر نادر فيه، فوجد صورًا قديمة، وبعض الهدايا القديمة، وخزف بحر، ووجد وسامًا ذهبيًّا صغيرًا جدًّا عليه جوهرة صغيرة في منتصفه من الياقوت، وله شريط أحمر ودبوس ذهبي..

تعجب من ذلك الوسام ولماذا لم تحكِ له أمه عنه؟!

ما سره؟!

يبدو قيمًا جدًّا.

بحث نادر في الإنترنت عن الأوسمة، فوجد صورة

الوسام من ضمن الصور، ففتح صفحتها، وقرأ ماذا فيها، فوجد المفاجأة.

إنه من أعلى الأوسمة لدى منظمة علمية سرية للأبحاث العلمية المتطورة التي لا تخضع لأي قوانين أو أديان ولها أبحاث في الاستنساخ البشري؟!

ووجد أن الوسام ذا الياقوتة الحمراء هو وسام لمن ضحى تضحية كبرى لديهم، وقام بمشاركة في عملية استنساخ بشري.

ما هذا؟

استنساخ بشري؟

والدتي؟

كيف ذلك؟

ما سر هذا الأمر؟

أعتقد أن لذلك سببًا في مأساتي.

ذهب إلى غرفة جانيت وهو يسير ببطء، يجر جر أقدامه الثقيلة وكأنها قد ربطت بها كراتٌ حديديةٌ يسحبها.

نظر إليها بعين اللوم يفط منها الألم.

_ هل لكِ أن ترحميني؟ أشعر بأني محلول يذاب في كوب

من الماء فيحدث فورانًا لا أكثر! من أنتِ ومن أنا وما سر الوسام؟

لم تكن جانيت بأفضل منه حالًا، بل كانت تعيش ما يعيشه من ألم ومشقة تتقطع شفقةً وشعورًا بالذنب عليه..

نظرت له وقالت:

- سأخبرك بما أخفيته عنك سنوات حياتك، وكلي يقين بأنه سيؤلمك. لكن أحيانًا الحقيقة مع الألم أهون من التيهة والضياع الداخلي. يا نادر إنني خليط من الغربة.. ولدت في فرنسا ومع ذلك شعرت بالغربة بينهم لكوني من أصول عربية.. تفككت الأسرة وكنت أنا الضحية.. باعتني أمي واشتراني أبي.. تركت مجتمعي الذي وُلدت فيه وذكريات طفولتي، وجئت لمجتمع غريب عليَّ فشعرت بغربة.. لم أستطيع أن أتأقلم مع الناس فشعرت بغربة.. حدثت لي مواقف مؤلمة جعلتني أنعزل داخل نفسي وأنفر من الرجال، وقد قتلوا بداخلي الوجدان والحب، ونزعوا قلبي من جوفي فصرت بلا قلب ينبض لهم ويشعر بهم. تحملت من الناس الكثير وتغربت داخل الغربة غربة.. لم يكن لي غير أبي، فمرض مرضًا شديدًا ووقفت بجانبه بكل ما أملك، وبعد ذلك مات وتركني في غربة ووحشة ووحدة تكاد تقتلني. قابلت طيفًا من الذكريات وهو صديق طفولتي ديلون

فأخبرني بأمر منظمة سرية ينتمي إليها، تقوم بأبحاث في الاستنساخ البشري. شعرت أنني بإمكاني أن أستمسك بذلك الأمل الذي سيخلصني من الوحدة التي أعيش فيها. لم أكن أتوقع أن تخرج بهذه الأمراض وأن يحدث بك ما حدث من انعزال الناس عنك.

انحشر صوتها وتحشرج وامتلأت عيناها بالدموع.

- أتدري من أنت؟ أنت استنساخ بشري من أبي! خلية جسدية من أبي وُضعت في بويضة مني منزوعة النواة، وتحت صدمات كهربية وعوامل حفازة نشطت وتكاثرت ووضعتك في رحمي حتى خرجت صورة طبق الأصل من أبي.

انهارت في البكاء.

نظر لها نظرة بعين لامعة كأنه يتحدث من خلف زجاج وقد صرف عينيه عنها وخاطب نفسه.

من أنا؟

هل أنا إنسان؟

هل أنا حيوان؟

هل أنا خلية نمت؟

هل أنا روح بلا جسد؟

أم جسد بلا روح؟

من أنا؟

بل ما أنا؟

نعم نعم عرفت نفسي. إنني في الأصل حيوان وحيد الخلية..

إنني بروتوزوا.

أنا بروتوزوا.

آها نعم. عرفت نفسي. أنا بروتوزوا.

لماذا لم تخبريني ذلك من قبل، إذًا لما أحببت فتاة كي تعذبني بهجرها لي واشمئزازها مني؟

كنت عرفت حجمي وقدري فأنا بروتوزوا.

لا يحق لي أن أحب إنسانة من أب وأم.

آها أنت لستِ أمي.

آها نعم لستِ أمي.

أنت بويضة منزوعة النواة. بويضة بدون خصائص وراثية. هكذا تعلمت في المدرسة التي كنت أتعلم فيها ولا أجلس إلا وحدي فكنت سخرية التلاميذ. الطفل العجوز أنا.

فقد أسماني الأطفال إي تي.

ومن أبي؟

ليس لي أب؟

أليس كذلك؟

ليس لي أب

خلية رجل ميت

أنا خلية رجل ميت

فلقد عرفت حقيقتي أنا خلية تكاثرت

أنا ضائع بلا هوية

أنا بلا جذور

أنا كورقة شجر

سقطت في الخريف

وتيبست سريعًا

وذرتها الرياح

البشرية كالجسد الحي، وكل إنسان في المجتمع كخلايا ذلك الجسد يربطه بباقي الخلايا روابط إنسانية من نسب وضوابط مجتمعية ووجدانية سواء أكان وجدانًا أدبيًّا أو

obeikandl.com

وجدانًا عقائديًّا. تلك الروابط هي التي تجعل الآحاد تتماسك وتكون مجتمعًا وإلا يتفكَّكْ وينتهِ.

وتنتهي البشرية بوجود أمثالي.

فأنا وغيري فناء للبشرية وبداية تفككها وقيامة قيامتها.

_ لا لا. لا تقل ذلك بني. لا تفكر إلا في وجودك وعيش تلك الحياة كما هي.

_ يا جانيت.. الأمر ليس بالسهولة التي تظنينها وأنا أعلم أنك تعلمين صعوبة ما أعاني لكنك تحاولين أن تُضفي عليَّ شيئًا من الغيابة والتيه الذي كنت أعيشه حتى لا أتألم ولكن فات الأوان وقد اعتلى الألم جسدي كله وتعدَّى إلى روحي.

_ هذا نداء لم أعتده منك.

_ نعم إنني الآن أتحدث من منطلق حقيقتي. أتدرين ماذا أشعر الآن؟ أشعر أنني بداية نهاية ذلك الكون.

أشعر أنني جنس آخر من البشر.

أشعر أنني من يأجوج ومأجوج الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

الذين يخرجون في آخر الزمان..

ونسبة الصلاح فيهم هي نسبة واحد في الألف حيث

تكـون النتيجـة لذلـك دخـول تسـع وتسـعين وتسـعمائة منهـم النـار وينجـو واحـدٌ فقـط مـن الألـف.

أنـا غـير منتـمٍ للبشريـة؛ فالبشريـة تقـوم عـلى المشـترك الـذي يربـط كل النـاس بعضهـم ببعـض.. 46 كروموسـوم بداخل كل خليـة بالجسـم مـن الـ30 تريليـون خليـة بشريـة تجمعت الـ 46 مـن رجـل وامـرأة، فيحمـل كل كروموسـوم سرَّ الكـون وهـو البصمـة الجينيـة التـي تحتـوي عـلى الجينـات الوراثيـة، أمـا أنـا فلا أنتمـي لتلـك المنظومـة المقدسـة الإلهيـة. إنـما أنـا نسـخة ممسـوخة مـن أبيـك. أحمـل بـكل خليـة مـن جسـدي 46 كروموسـوم نسـخة مكـررة مـن أبيـك بغـير تميـز أو طبيعـة شـخصية لي. أنـا أصبحـت سـاحة معركـة بـين خلايـا سرطانيـة متوحشـة وخلايا جسـدية أصابتهـا الشـيخوخة مـن قبـل أن أولـد فلابـد أن تكـون الغلبـة لذلـك المـرض اللعـين.

أنـا عبـث البـشر الـذي تخطـى كونـه مجـرد بحـث عـن علـم جديـد يخـدم البشريـة إلى تحـدٍّ للـذات الإلهيـة ومحاولـة لترويـض الجينـات.

المجد لسر الكون بعد فناء البشر..

لم يتمالـك نفسـه بعـد تلـك الكلـمات وسـقط مغشـيًّا عليـه؛ فقـد قتلـه السرطـان الـذي التهـم جسـده العليـل وفتـك بـه.

سـمعت جانيـت مـا قالـه، وهـي تبكـي بحرقـة عـلى مـا

أجرمتـه في حقـه وحـق نفسـها وحـق البشريـة.

نظـرت جانيـت لـه وقـد سـقط قتيـلًا.. ذهبـت إلى غرفـة نومهـا تُهـرول في فـزع وأخرجـت علبـة الحبـوب المنومـة التـي لم تكـن تنـام إلا بحبـةٍ منهـا، ووضعـت جميـع الحبـوب المنومـة في فمهـا، وشربـت عليهـا زجاجـة مـن البـيرة، فقـد كانـت لا تـشرب المـاء..

المجد لسر الكون.
انتهت في ٢٨ أغسطس ٢٠١٦
الإسكندرية
مصر
أحمد دسوقي

opelkandl.com